الباب الثانى

السخرية فى الشعر المصرى فى القرن العشرين

(اتجاهات وملامح)

الفصل الأول

السخرية في المجالات الوطنية والسياسية

مدخل:

في عام ١٨٨٢م احتلت القوات البريطانية مصر، وأخذت تقحم نفسها في كل شئ من أمور البلاد، فعزلت "إسماعيل"، وولت "توفيق" الذى أسلم إليهم الأمور صاغرا،فكان بذلك مثالا للضعف والاستسلام ٠

وكان من أبرز المعالم التى تشير إلى ضيقه ذرعا بالحرية وبالمنادين بها: نفيه جمال الدين الأفغاني؛ لأنه أخذ يندد بوجود المحتل الأجنبى فى البلاد، كما عزل الإمام محمد عبده من وظيفته، وأمر؛ بالبقاء فى قريته[١] ٠

كذلك نجد أن وزارة "مصطفى رياض" قد تولت الحكم فى ذلك الوقت، وكان على رأس وزارة الحربية فيها رجل شركسى عرف بالجهل والاستبداد والتعصب لبنى جنسه وهو "عثمان رفقي" مما أشعل الوعى الوطنى فى البلاد، وكانت ثورة عرابى قمة التعبير الصادق عنه٠

لأجل ذلك، كثر الحديث عن الظلم والظالمين – فى هذه الفترة – كما ظهرت الدعوة إلى وجوب محاكمة السلطان، والدعوة إلى النظام النيابي، والعدالة الاجتماعية والمناداة بالحد من التغلغل الأجنبى فى البلاد، والدعوة إلى التخلص من النظام الملكي، وإقرار النظام الجمهوري[٢]٠

وقد ألحت هذه المفاهيم والأحداث على مشاعر الشعراء إلحاحا قويا، مما جعل ألسنتهم تنطلق بالأشعار الوطنية التى تندد بالمحتل حينا أو تسخر منه حينا آخر٠

١- انظر: تاريخ العصر الحديث، د٠ محمد صبرى /١٨٧ ، الطبعة الأولى ١٩٢٦م ٠

٢- راجع: الحوار الأدبى حول الشعر، د٠ محمد أبو الأنوار/٣٤- ٣٨ ، الطبعة الثانية، دار المعارف – القاهرة ١٩٨٧م٠

وقد كانت الظروف مهيأة لذلك، حيث أتاح المحتل للصحافة حرية كبيرة للتعبير ولم يبد ممانعة فى نطق الشعراء بما يعتمل فى نفوسهم حتى ولو كان ضده فى بعض الأحيان، ولكنه فى أحيان أخرى كان يضيق ذرعا بذلك، فيضطر إلى التضييق على الصحافة حينا، أو مصادرة بعض الصحف حينا آخر[1] .

ومع ذلك، فقد كان الشعراء لا يعدمون وسيلة للتعبير عما يعتمل فى نفوسهم فكانوا يلونون بفن السخرية؛ ليعبروا – من خلاله- عن قضاياهم ومشاكلهم التى لم يتمكنوا من التعبير عنها بطريق صريح.

وعندما ننظر إلى مطلع القرن العشرين، نجد أنه كان غاصا بالفتن والثورات والاضطرابات المختلفة فى اتجاهاتها وغاياتها؛ لأن هذه الفترة كانت فترة غليان سياسي وثورة شاملة على كل مفاهيم الحياة، وهذا ما يجعله ثمرة طبيعية للأحداث السياسية التى وقعت فى أعقاب القرن التاسع عشر.

والناظر يرى أنه فى مطالع هذا القرن وقعت كثير من الأحداث السياسية المهمة: مثل حادثة دنشواى الشهيرة عام ١٩٠٦م، والتى هيجت المشاعر والخواطر. وأججت نيران الحنق على المحتلين، وأخذ الشعراء الوطنيون ينظمون القصائد الحامية فى التشهير بالإنجليز المحتلين.

ومع ذلك "لم يرفع الخديو – عباس حلمى الثاني- أصبعا ضد مذبحة دنشواى وأحكامها الجائرة" [2].

وفى عام ١٩٠٧م عزل اللورد كرومر من منصبه، ففرح الوطنيون بذلك فرحا عظيما؛نظرا لعدم توافق سياسته مع ما تصبو إليه مصالح المصريين: من الرغبة فى الاستقلال، والتمتع بالحكم النيابي، ونشر التعليم بجميع أنواعه بين أبناء البلاد ونيل حرية

١- راجع: المصدر السابق نفسه/٤١ ، ٤٣ .

٢- ٥أيام هزت مصر، محسن محمد/١٧، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة ١٩٨٤م .

الصحافة والخطابة، وغيرها من أنواع الحريات[1] ثم ما حدث بعد ذلك من موت للزعيم الوطنى مصطفى كامل عام ١٩٠٧م، ثم نشوب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨م)، ثم ثورة ١٩١٩م التى كانت "حدا فاصلا بين عصرين: عصر الاحتلال ثم الحماية وفى هذا العصر كانت للإنجليز الكلمة العليا فى كل صغيرة وكبيرة، وكان الموظفون البريطانيون متمتعين بسلطان مطلق فى كل مرافق البلاد ومصالحها" [2].

ثم ما تبع ذلك، من تصريح الثامن والعشرين من فبراير ١٩٢٢م، وإعلان إلغاء الحماية عن مصر بتحفظات أربعة[3].

ثم المناداة بالسلطان فؤاد ملكا لمصر، وتأسيس حزب الأحرار الدستوريين ١٩٢٣م ثم وفاة الزعيم سعد زغلول، ثم معاهدة ١٩٣٦م بين مصر وإنجلترا، والتى نصت على انتهاء احتلال مصر عسكريا بالقوات البريطانية، ثم نشوب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥م)، ثم حرب فلسطين عام ١٩٤٨م.

وقد تركت هذه الأحداث بصماتها على أبناء الشعب المصرى – ومنهم الشعراء- إيجابا وسلبا[4].

ثم إن بواكير اليقظة لدى الأمة العربية ظهر صداها فى أثناء هذه الفترة فالاستعمار لا يزال جاثما فوق صدر الأمة العربية، وقد سلب حريتها، وحطم مواردها المختلفة، وأرهق عامة الشعب بضرائبه ويلاته الفادحة، فى حين أن الأمم من حولها تتصارع نحو التقدم والارتقاء فى شتى المجالات.

١- راجع: مجلة الرسالة، العدد ٧٨/٨٦٣، السنة ١٨، ١٦يناير ١٩٥٠م، من مقال تحت عنوان: "الشعر المصرى فى مائة عام" للأستاذ/سيد كيلاني.

٢- المصدر السابق، العدد ١٠٦/٨٦٤، السنة ١٨، ٢٣يناير سنة ١٩٥٠م.

٣- هذه التحفظات هي:

١- تأمين المواصلات البريطانية فى مصر.

٢- حماية المصالح الأجنبية فى مصر.

٣- الدفاع عن مصر ضد أى اعتداء أو تدخل أجنبي.

٤- أن يظل الحكم فى السودان مشتركا بين مصر وإنجلترا. وقد كانت هذه التحفظات وبالا على البلاد فيما بعد.

٤- راجع: ثورة ١٩١٩م تاريخ مصر القومى من ١٩١٤م إلى ١٩٢١م، عبد الرحمن الرافعي/٣٣٢ الطبعة الرابعة، دار المعارف.

وقد كان هذا سببا قويا دفع الأمة العربية إلى أن تستجمع أمرها، وتوحد كلمتها وعزمها على النهوض والتقدم، على الرغم من كل القيود والأغلال التى أرهقت قواها.

وبدأت الأمة العربية تصل أحبالها بأحبال الثقافة الحديثة ، وتأخذ منها بالقدر الذى يتفق مع شخصيتها، فانتشر التعليم، وكثر رواه، ونشطت حركة الصحافة، واهتمت بالنواحى السياسية والاجتماعية ، فضلا عن الناحية الأدبية فكان لها بذلك الفضل الكبير فى إيقاظ مشاعر الأمة العربية.

إذن، فهذه الفترة ، هى فترة غليان سياسى بحق، كما يظهر من خلال هذه الأحداث ومن شأن هذا الجو القلق أن يؤثر فى شتى مجالات الحياة، والأدب أحد هذه المجالات "ولا خلاف فى أن الأدب الحى المعاصر هو الذى يظهر تيارات المشكلات الاجتماعية السائدة ويعكس ظلال الوعى القومي، ولهذا ظهر فى مختلف الأمم الغربية والشرقية نقاد يؤكدون العلاقات الصحيحة بين الأدب والحياة والصلات الأكيدة بين الأدب وبين الأحوال الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية والثقافية السائدة" [1] .

ومن هذا المنطلق، وجدنا شعر مصر فى القرن العشرين على اختلاف منازعهم ومشاربهم الأدبية – يتخذون من أشعارهم سلاحا قويا ضد الاستعمار ومساوئه، فما تكاد اتفاقية تعقد ، أو حادثة تقع، أو مستبد يظهر، حتى يتبارى الشعراء فى نظم الأشعار التى تكشف عن مكر المستعمر ومكايده، وسوء نيته واستهتاره بمصالح البلاد والعباد.

وقد ترتب على فساد الأوضاع السياسية فى مصر، وتفشى روح الاستبداد بها:ظهور فن السخرية بأسلحته الفتاكة.

فقد أخذ أدباء الأمة وشعراؤها، يسخرون ويتهكمون بالمحتل الدخيل، ومن الامتيازات الأجنبية التى ترتب عليها امتصاص العدو المحتل دماء الشعوب واستئثاره

١- فصول فى الأدب والنقد والتاريخ، على أدهم/٢٤٩ بتصرف يسير، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م.

بخيراتها، وحرمان أبنائها من كل فتيل وقطمير، كما سخروا من كل سوءة سياسية أراد الاستعمار فرضها على البلاد.

كما سخروا - فى ناحية أخرى - من غباء الحكام، وجهل الوزراء والكبراء ومن الحكام المستبدين وأعوانهم.

ونحن عندما نتأمل اتجاهات السخرية السياسية فى القرن العشرين، نجد أنها مرت بعدة مراحل متباينة، وكان لكل مرحلة منها ما يميزها عن غيرها من المراحل ففى النصف الأول من هذا القرن، مرت السخرية بمرحلتين متكاملتين:

المرحلة الأولى: مرحلة الاحتلال:

وتبدأ من مطلع القرن العشرين حتى عام ١٩٢٢م، وهذه الفترة تمثل فترة الاحتلال البغيض الذى كتم أنفاس الأمة، وسلبها أعز ما تملك.

والسخرية التى تقاوم المحتل، وتجاهده، هى سخرية وطنية، وكذلك تلك التى تحارب أذناب الاحتلال من المصريين الخائنين هى سخرية وطنية.

وقد تركزت السخرية الوطنية من الاحتلال : حول بيان مفاسده، وسوء تصريفه لشئون البلاد، وكذلك ركزت السخرية الوطنية سهامها على المصريين الضعفاء الخونة الموالين للعدو المحتل ضد بلادهم.

وإليك الآن تفصيلا لأهم اتجاهات السخرية الوطنية فى مصر فى هذه المرحلة:

أ ـ السخرية من الاحتلال ومفاسده.

١ـ السخرية من سياسة العنف والشده وكبت الحريات.

السخرية طبع قديم فى الشعب المصرى منذ أن وجدت حضارته على ضفاف النيل، وما كان ذلك إلا نتيجة لما تعاقب عليه عبر العصور التاريخية الطويلة من محن وآلام

فقد "ظلت مصر مقصدا للغزاة والغاصبين، ومرتعا للحكام منهم فى مراحل متكررة من تاريخها الطويل، وعلى الرغم من أن مصر كانت أول حضارة، فهى للأسف أطول مستعمرة فى التاريخ ٠

وقد انعكس ذلك بشكل سلبى على نفوس أبنائها المخلصين، فإذا أعوزهم الدفاع عن ديارهم، انكفأوا على ذواتهم، ولكن إلى حين، غير أنهم ينصرفون لشئ آخر يتخذون منه أسلحة حادة تنبثق منها النكتة الساخرة، والسخرية اللاذعة يطلقونها على البديهة والفطرة، فتجعلهم يحسون أنهم قد تخلصوا – على نحو ما – مما يبطنون من سخط وكراهية، كما تشعرهم وكأنهم قد حققوا نوعا من الانتصار، وإن كان بسلاحهم هم، وهو سلاح لا يمكن لأحد أن ينتزعه منهم أو يستولى عليه"[1]٠

وقد وقف الشعراء الوطنيون موقفا يحمد لهم ضد سياسة المستعمر الفاسدة، وسوء تصريفه لشئون البلاد٠

فهذا الشاعر "فخرى أبو السعود" [2] يسخر من المستعمرين الذين يمثلون عبئا ثقيلا فوق صدر الأمة، فيقول من قصيدته: "أعداء لا أصياف" [3] :

أرانا نقرئ القوم السلاما ... ويبغون العداوة والخصاما

ونكرمهم مجاملة ووِدا ... ولم نر فيهم الشيم الكراما

ونرعاهم بموطننا حلولا ... ولم يرعوا لموطننا ذماما

وندعوهم ضيوفا فى ذرانا ... لهم حق النزيل إذا أقاما

١- جريدة الأهرام، الجمعة ٢٠٠٢/١٠/١١م،ص٣، من مقال بعنوان:"حافظ إبراهيم كاتبا ساخرا" للأستاذ/ أحمد بهجت٠

٢- ولد فخرى أبو السعود عام ١٩١٠م فى مدينة بنها القريبة من القاهرة، التحق بمدرسة المعلمين العليا عام ١٩٢٨م وقضى بها أربع سنوات دون تخلف حتى تخرج عام ١٩٣١م، ولم يعمل بالتدريس بعد تخرجه، وإنما عمل بالصحافة، وسافر إلى إنجلترا فى بعثة للغة الإنجليزية، ثم عاد وعين مدرسا بمدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية، ثم نقل إلى مدرسة الرمل الثانوية، وظل بها حتى مات سنة ١٩٤٠م٠
(ينظر فى الترجمة: الأعلام، خير الدين الزركلى ، ج١٣٨/٥، ط/الحادية عشرة، دار العلم للملايين ١٩٩٥م)٠

٣- ديوان فخرى أبو السعود، جمع وتقديم على شلش/١٠٠،ط٠الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥م

وما للضيف حق من مضيف إذا نبذ الحياء والاحتشاما
همو ساداتنا فيما ادعوه ولم نك عندهم إلا سوامـا
فضوليون أنتم لا ضيوف ثقلتم في منازلنا مقاما[1]

والأبيات- كما نرى - تضج بالثورة والغضب من هذه الأوضاع الفاسدة فمصر التى فتحت أحضانها لكل غريب ودخيل، ورعته حتى نبتت له أظفار وقويت له مخالب لا تلقى منه فى نهاية الأمر سوى نظرات الازدراء والاحتقار وتتجسد السخرية- هنا- من خلال هذا التناقض الغريب الذى يغص به النص فحين يمد أبناء مصر أيديهم بالسلام إلى محتل بلادهم، وغاصب أرضهم، إذا به يمد يده إليهم بالعداوة والخصومة، ويغلظ عليهم ويتغطرس فى معاملتهم وهو فوق أرضهم.

ويقول الشاعر "أحمد الكاشف"[2] ساخرا من سياسة القمع والشدة وكبت الحريات التى تعانى منها مصر على يد الواغلين الغاصبين، وذلك من قصيدته "عام السيل" [3] :

لا تحسبوا أن فى ذا الغيث منفعة لأرض مصر به قد يؤمن الشرق
ما الماء إلا دموع القوم صيرها ظلم الدخيل كلج البحر تصطفق
وما الرعود سوى خفق القلوب وما البروق غير لظاها وهى تحتـرق
وما الرياح سوى الأرواح تدفعها من الصدور هموم فهى تستبق
ويلاه يا مصر ما التدبير فى شرق إذا شكونا أذاه عمنا الغرق[4]

١- الأبيات من بحر الوافر التام.

٢- ولد أحمد الكاشف فى قرية القرشية ، إحدى قرى مديرية الغربية عام ١٩٧٨م، وبها تعلم وتثقف وتقلب فى شئون الحياة المختلفة، حتى وافاه أجله بعد رحلة قاسية مع الحياة والأحياء ، وذلك عام ١٩٤٨م.
ينظر:الأعلام، الزركلي، ج١/١٢٤ .

٣- ديوان الكاشف، دراسة وتحقيق وتعليق أ.د/محمد إبراهيم الجيوشي/١٠٨، ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

٤- الأبيات من بحر البسيط التام.

فالشاعر – هنا – يشير إلى أن العدو المحتل لا يمثل حماية لمصر كما يزعم وإنما يمثل قيدا غليظا يلتف حول عنقها، مما يترتب عليه تزحم الدموع فى عيون أبنائها، وخفق قلوبهم من فداحة الظلم، وسياسة الجبروت التى يسلكها المحتل ضد أبناء الوطن.

وتكمن السخرية هنا فى بيت الشاعر الأخير، فما المحتل فى بلادنا إلا بمثابة الشرق فى الحلوق ، فإن نحن شكونا أذاه وظلمه ، عمنا بويلاته ونكاله فنلجأ إلى الصمت مقهورين.

وهنا تبدو المفارقة واضحة؛ فإن الإنسان منا يشكو من يؤذيه ليتخلص من أذاه لكن أن يترتب على الشكوى ازدياد الأذى، فتلك مفارقة غريبة.

والسخرية يكشف عن الواقع السياسى البغيض، الذى تعانى منه البلاد على يد المحتل، كما أنها تصور مفاسد المحتل، وخنقه الحريات، وقتله آمال الشعوب.

ويقول حافظ إبراهيم [1] متهكما بالإنجليز وبفظائعهم وتنكيلهم بالمصريين بعد حادثة دنشواى فى الثالث عشر من يولية ١٩٠٦م[2] :

أيها القائمون بالأمر فينا ... هل نسيتم ولاءنا والودادا؟

خفضوا جيشكم وناموا هنيئا ... وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا

وإذا أعوزتكم ذات طوق ... بين تلك الربا فصيدوا العبادا

إنما نحن والحمام سواء ... لم تغادر أطواقنا الأجيادا

لا تقيدوا من أمة بقتيل ... صادت الشمس نفسه حين صادا

جاء جهالنا بأمر وجئتم ... ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا

١- هو الشاعر محمد حافظ بن إبراهيم فهمى المهندس، المعروف بحافظ إبراهيم، ولد بالقرب من ديروط بصعيد مصر، ولا يعرف له تاريخ ميلاد محدد، مات أبوه وهو فى الرابعة ، فقضى حياة مضطربة فى كفالة خاله، دخل المدرسة الحربية، وعين ضابطا بالسودان، اتصل بكثير من الزعماء، وشارك شعره فى الأحداث السياسية، وأحيل إلى المعاش سنة ١٩٣٢م، وتوفى فى نفس العام.(يراجع فى الترجمة: الأعلام ، الزركلي، ج٦/٧٦) .

٢- ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه:أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبيارى/٣٣٤، ٣٣٥، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

أحـــسنوا القتـــل إن ضنـــنتم بعفـــو أنفوســـــا أصـــــبتم أم جمـــــادا

ليـت شـعرى تلـك محكمـة التفتـى ش عـــادت أم عهـــد نـــيرون عـــادا؟ [1]

فحافظ إبراهيم – هنا- يتهكم بفظائع الإنجليز وقسوتهم فى ذلك اليوم المشئوم الذى قام فيه خمسة من الضباط الإنجليز من معسكرهم، وقصدوا إلى بلدة دنشواى- مركز تلا – منوفية، لصيد الحمام، وهناك أصيب بعض الأهلين فاصطدموا بالإنجليز، فأصيب بعض الضباط بإصابات أفضت إلى الموت، فثارت ثائرة اللورد كرومر – عميد الدولة البريطانية إذ ذاك – وعقدت المحكمة المخصوصة لمحاكمتهم، وقد أظهرت هذه المحكمة ألوانا من القسوة على المصريين والتحيز للإنجليز، ورغم كل ذلك، لم يستطع الخديو عباس حلمى الثانى أن يفعل شيئا أمام هذا التيار الدامي، وأمام هذه الأحكام الجائرة التى قررت: شنق أربعة مصريين يوم ٢٨ يونية ١٩٠٦م، وإبقاء تسعة يعانون السجن، اثنين حكم عليهما بالأشغال الشاقة المؤبدة، وواحد بالأشغال الشاقة خمسة عشرة عاما، وستة حكم عليهم بالأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات[2] .

وتبدو السخرية أوضح ما تكون فى بيت حافظ الأول، إذ يرمى الإنجليز فيه بإنكار الجميل، ونسيان المعروف، وهذا لا يتأتى إلا ممن تتوافر فى طبعه عوامل الخسة واللؤم.

وفى البيت الخامس: سخرية من تعسف الإنجليز المحتلين وقسوتهم القاسية، حين أخذوا ينكلون بالشعب المصرى كله تشفيا وانتقاما لواحد منهم أصابته الشمس فمات لا بإصابة أحد.

ويسخر حافظ إبراهيم – كذلك – فى بيته الأخير، من تلك المحكمة الجائرة التى أصدرت أحكامها ضد أهل دنشواى، ونفذت فيهم حكم الإعدام والجلد فى نفس البلد على مرأى ومسمع من أهله.

١- الأبيات من بحر الخفيف التام.

٢- راجع: ٥ أيام هزت مصر ، محسن محمد/١٧ .

وتكمن السخرية فى تساؤله وحيرته: أهذه محكمة من محاكم العدل أم هى محكمة من محاكم التفتيش – التى عرفت بالقسوة والظلم واضطهاد الناس ومصادرة أملاكهم، ثم إحراقهم من غير أن تدع لهم فرصة للدفاع عن أنفسهم قد عادت؟ أم أن عهد (نيرون) الملك الرومانى المعروف بالظلم والقسوة والاستبداد – قد عاد هو الآخر؟

ونلحظ أن سخرية حافظ هنا متولدة عن نوع من اليأس والضعف، ولذا فهى ليست مظهرا من مظاهر التمرد، بقدر ما هى مظهر من مظاهر الخنوع والاسترحام.

ويقول "هاشم الرفاعي" [1] ساخرا من سياسة القمع والشدة التى يستخدمها المحتل ضد أبناء الشعب المصرى[2]:

حكم البغاة فما رأيت بعهدهم ... غير الرصاص إلى الصدور يسدد

يا مصر قد عاثت بأرضك عصبة ... باسم الصيانة والحماية أفسدوا

قتلوا شباب الجامعات وجندلوا ... فى النهر من بمياهه يستنجد

سالت دماء الأبرياء ذكية ... ظلما فسحقا أيها المستعبد

فعليك من رب السماء تنزلت ... لعناته والروح منهم تصعد

أخرست صوت الحق بالسجن الذى ... ضاقت جوانبه بمن قد شردوا

وبشمت مالا والفقير معذب ... إذ ليس يملك ما به يتزود[3]

هاشم الرفاعى يعدد فى هذا النص مساوئ الاحتلال ومفاسده فى البلاد من مثل: استعماله العنف والشدة والشراسة مع أبناء البلاد، وجعل لغة الرصاص المسدد إلى الصدور هى لغة الحوار والتفاهم، ثم فرض الحماية البريطانية على مصر والتى مثلت قيدا حديديا شرسا يكبل حرية البلاد، ويقتل آمالها فى نيل الحرية والاستقلال، وفى الجانب الآخر

١- الأبيات من بحر الوافر التام.
٢- الأبيات من بحر الوافر التام.
٣- الأبيات من بحر الكامل التام.

كانت عاملا قويا أدى إلى إطلاق يد المحتل الدخيل فى البلاد لينهب ثرواتها، ويمتص دماءها فى كل لحظة.

وتكمن سخرية الشاعر من المحتلين فى إطلاق اسم "البغاة" عليهم فى بيته الأول وهو إطلاق مناسب لطبيعتهم التى ألفت البغى والظلم.

كما تكمن السخرية فى بيت هاشم الرفاعى الأخير:

وبشمت مالا والفقير معذب إذ ليس يملك ما به يتزود

فهذا البيت يرسم صورة للمحتلين المتغطرسين وقد أتخمت جيوبهم بالأموال وانتفخت كروشهم بألوان الطعام والشراب، بينما يبدو أبناء البلاد إلى جانبهم فقراء مهزولين شاحبين ، تشكو جيوبهم وبطونهم من شدة الفقر والمسغبة وهى صورة مضحكة وإن كانت تدل على فداحة الظلم والقهر والحرمان الذى تعرض له المصريون بسبب ظلم المحتل وعسفه.

ويقول حافظ إبراهيم – أيضا – ساخرا من سياسة العنف والتنكيل التى يتبعها المحتل ضد المصريين[1] :

حولوا النيل واحجبوا الضوء عنا واطمسوا النجم واحرمونا النسيما

واملئوا البحر إن أردتم سفينا واملئوا الجو إن أردتم رجوما

وأقيموا للعسف فى كل شبر (كنستبلا)بالسوط يفرى الأديما[2]

إننا لن نحول عن عهد مصر أو ترونا فى الترب عظما رميما[3]

ففى هذا النص تبدو وطنية حافظ إبراهيم واضحة؛ إذ يتهكم بالاحتلال ومظالمه وسوء تصريفه لشئون البلاد، ويطلب من المحتل – على سبيل السخرية- أن يحول مجرى

١- ديوان حافظ إبراهيم/٤٢٢ .

٢- العسف:الظلم والأخذ بالقوة. ويفرى الأديم: يشق الجلد.

٣- الأبيات من بحر الخفيف التام.

النيل عن مصر، ويحجب ضوء الشمس عنها، ويطمس النجوم فى سمائها، ويحرمها من النسيم، ويملأ البحر عليها سفنا، والجو رجوما تتساقط عليها ويطلب منه – كذلك – أن يتمادى فى ظلمه وعسفه بأن يقيم للظلم والتنكيل فى كل شبر مقرا لتعذيب أبناء الوطن والبغى عليهم ... ثم يأتى حافظ فى نهاية كلامه بما يصدم المحتل ويؤرقه، فمهما بغى المحتل، وأقام للظلم أبنية وصروحا، فليس ذلك بمانع المصريين من الثورة والتمرد.

على الظلم والفساد بشتى صوره حتى آخر قطرة من دمائهم.

وبالتأمل، نجد أن "حافظ إبراهيم" هنا يلجأ إلى أسلوب المفارقة التى ترتبط بالسخرية والضحك.

وهى تشير إلى حقيقة ضمنية، أو معنى خفى يربط بطريقة معينة بين الطرفين أو الأطراف المتعارضة، أو التى كانت تبدو متناقضة.

فحين يعتقد المحتل أن الشدة والعنف هما وسيلة إسكات الشعوب وإرغامها، نجد أن ذلك – على سبيل المفارقة – يلهب مشاعر المصريين للثورة والنضال، فتأتى بذلك الأمور على عكس المتوقع فيها.

ويقول – أيضا – حافظ إبراهيم ساخرا من سياسة كبت الحريات، وتكميم الأفواه التى يسلكها الإنجليز مع أبناء الشعب المصري[1]:

فقد غدت مصر فى حال إذا ذكرت ... جادت جفونى لها باللؤلؤ الرطب

أأننى عند ذكرى ما ألم بها ... قرم تردد بين الموت والهرب

إذا نطقت فقاع السجن متكأ ... وإن سكت فإن النفس لم تطب[2]

١- ديوان حافظ إبراهيم/٤٣٢ .

٢- الأبيات من بحر البسيط التام.

كانت "الظروف السياسية مدة الاحتلال الإنجليزى – أى ١٩٢٠م تعمل على كبت الروح الوطنية بمساعدة الجرائد الموالية للإنجليز، ومعاكسة تلك التى تناوئهم من الصحف المصرية" [١].

كما كانت تعمل على خنق الكلمة الجريئة فى الأفواه ومصادرتها بشتى الوسائل مما ألهب الشعور الوطنى عند المناضلين من الأدباء، ومنهم حافظ إبراهيم الذى أشهر سلاح السخرية من المحتل باعتبارع لونا من المقاومة، والشعور بالانتصار فنراه يسخر من سياسة كبت الحريات، وتكميم الأفواه، ويذكر أنه فى حيرة شديدة بين إقدام يعقبه الأذى والعقاب، وبين إحجام يعقبه لذع الضمير وتأنيب النفس.

والسخرية تتجسد فى هذا النص من خلال الطباق الذى هو أحد عناصر التناسب فى الكلام، والذى يبدى الشاعر فى حيرة من أمر السياسة المتعسفة التى ألجأته إلى السكوت فى مقام يستدعى منه الكلام.

ويقول الشاعر "هاشم الرفاعي" ساخرا من سياسة المحتل الخرقاء التى حجرت على حرية الصحافة، وقيدت الأقلام الحرة الشريفة[٢] :

هم حطموا الأقلام ما تركوا لنا ... غير النفاق بغيثه الهطال

ثم عيون البغى فينا واشتروا ... بعض النفوس.. حقيرة بالمال

شتد لفح الرعب حتى أخمدوا ... حرية الآراء والأقوال

وهوت منابرنا، فرب صحيفة ... أدمت جنوب عدونا بنصال[٣]

كانت أشد من السهام مرارة ... إن أرهفت أقلامها لنضال

فعدا عليها الظالمون وحطموا ... منها الصريح.. وإنها لغوال

١- الصحافة حرفة ورسالة، سلامة موسى/٥ بتصرف يسير، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية- القاهرة ١٩٥٨م.

٢- ديوان جراح مصر/٥٤، ٥٥ .

٣- النصل: حد السيف ونحوه.

مـــا عـــدت يـــا أرض الكنانـــة موطنـــا للحـــر.. بـــل قـــد صـــرت دار نكـــال
مـــا عـــاد قـــول الحـــق غـــير جريمـــة تـــأتى لكـــل مـــواطن بوبـــال[1]

يسخر هاشم الرفاعى – هنا – من سياسة المحتل العوجاء التى حجرت على حرية الصحافة المصرية، وقيدت أقلام الأحرار، وتوعدتهم بالسجن والنكال، وما ذلك إلا لأن "الصحف هى عين الشعب على الحاكمين، فإذا كان هؤلاء من المستعمرين المستبدين فإنهم لا يطيقون هذه العين الناقدة البصيرة التى تعين الأخطاء، وتفضح الخيانات، وترتب المسئوليات" [2].

ولذا كانت قوى الاحتلال تدعم الصحف الموالية لهم، وتمدها بالمساعدات المالية حتى تنشر الكذب، وتروج الباطل، بينما كانت تعمل سرا وجهرا على تعطيل الصحف المصرية، ووضع العراقيل فى طريقها، وتعريضها للإغلاق والمصادرة من حين لآخر.

فقد "كانت الصحافة تجارة مثل أى التجارات ، ولكن كانت قيودها أثقل من سائر التجارات، وكان الصحفى المصرى يحمل هذه القيود راضيا، وينزل على شروطها صاغرا، لأنه كان يراها تتفق ومصلحة وطنه التى هى أكبر من مصلحته ولكن الصحفى الأجنبى لم يكن يبالى بهذه القيود، فهد كان ينشد من هذه التجارة الربح والربح فقط.

لهذا السبب، مضى علينا ثلاثون سنة والجرائد المصرية تعطل ، بينما الجرائد الأجنبية لا تعطل ، وانتهت هذه الحال بأن أصبحت الصحافة فى مصر صناعة أجنبية كاد ينساها المصري" [3] .

وتكمن السخرية من المحتل هنا فى البيت الثالث:

واشتد لفح الرعب حتى أخمدوا حرية الآراء والأقوال

١- الأبيات من بحر الكامل التام.
٢- الصحافة حرفة ورسالة، سلامة موسى /٢٣ .
٣- الصحافة حرفة ورسالة، سلامه موسى/١٢ .

فهى تصور فساد النظام السياسى الذى يسلكه المحتل الدخيل مع المخلصين من أبناء الوطن، من نحو التضييق عليهم، ونشر دواعى الفزع والرعب بين صفوفهم رغبة فى إلزامهم بالصمت ، واغتيال نبت الحرية فى نفوسهم.

وفى مثل هذا الجو المملوء بدخان الظلم والاستبداد السياسي، يصبح قول الحق جريمة نكراء، يستحق المتلبس بها العقوبة والنكال ، وهو ما يشير إليه البيت الأخير:

ما عاد قول الحق غير جريمة تأتى لكل مواطن بوبال[1]

وهى سخرية لاذعة من سياسة هذا المحتل الدخيل، الذى يقحم نفسه فى شئون البلاد، ويتصرف فيها وفق ما تقتضيه بواعث الطمع عنده، دون لياقة أو مراعاة لمصلحة أصحاب البلاد الأصليين.

وعلى نفس هذا الدرب تبدو خطا شاعر النيل "حافظ إبراهيم" حين يتهكم بالمستعمر الذى يحاول قلب حقائق الأمور وإظهار المصريين فى صورة المتخلفين المتزمتين يقول[2] :

أنقمت منا أن نحس ؟وإنما هذا الذى تدعو إليه وتندب

أو كلما باح الحزين بأنة أمست إلى معنى التعصب تنسب

رفقا عميد الدولتين[3]بأمة ليست بغير ولائها تتعذب[4]

فحافظ هنا يخاطب "اللورد كرومر" المعتمد البريطانى فى مصر، فيقول له: أتطلق يد الانتقام فينا دون ذنب إلا أن نما فينا وازع من الوعى والإحساس! فهذا الذى كنت تدعونا إليه، ثم أنك تتعسف معنا أشد ما يكون التعسف حين تنسب تهمة التعصب إلى كل محزون يئن أو مكروب يتألم من بلواه!! ثم يطلب منه الرفق بالأمة المصرية، ولاسيما أنها تستحق الرفق والشفقة لما عندها من ولاء وداد لولاة أمرها.

١- الأبيات من بحر الكامل التام.
٢- ديوان حافظ إبراهيم/٣٣٧ .
٣- عميد الدولتين: الدولة الإنجليزية، والدولة المصرية.
٤- الأبيات من بحر الكامل التام.

وعند محاولة التأمل فى النص، نجد أن السخرية تكمن فى عدة مواطن منها قوله: أنقمت منا أن نحس ؟! إذ إن نمو الإحساس، ويقظة الشعور الوطنى أمر محبب، وهو يعد خطوة على طريق التقدم الحضارى، والتحرر من قيود البلادة والغفلة.. وبالتالى فهو أمر لا يستدعى العقوبة عليه بالانتقام ! لكن إذا عد نمو الإحساس ويقظة الشعور الوطنى عيبا يعاقب أصحابه بسببه، كانت هذه مفارقة غريبة تدعو إلى السخرية والتهكم، كما فى قوله – تعالى- على لسان من آمن من حاشية فرعون : "وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا" [1] أي: وما تنقم منا إلا بسبب الإيمان!!

ومثل ذلك يقال فى البيت الثالث: إذ المتوقع أن تنعم الشعوب وتمتع بقدر ما عندها من ولاء ووفاء لحكامها وقادتها ، لكن أن يكون العكس، فيكون العذاب والنكال هو جزاء الولاء، فهذه أيضا مفارقة عجيبة، وهى تنطوى على سخرية مرة ولاذعة، حين تسير الأمور فى غير مساراتها الطبيعية.

وإذا رجعنا إلى البيت الثاني: نجد أن ظلم المحتل الدخيل وعسفه يبلغ مداه حين نراهم يحملون الأمور فوق طاقاتها، ويقلبون الحقائق، فيسمون مجرد "الشكوى" أو "الأنين" الذى يصدر من الحزين المظلوم فى وطنه تعصبا وتمردا ينبغى القضاء عليه.

وهذه سخرية مرة، تبين –فى وضوح – مظالم الاحتلال وفساد سياسته فى البلاد.

وإذا كان أسلوب "حافظ" تبدو عليه الرقة والخضوع –هنا- فإن أسلوب "شوقي" كان عاصفة هوجاء.

يقول أمير الشعراء"أحمد شوقي" [2] ساخرا من "كرومر" وسياسته الخرقاء "حين مكث فى مصر ربع قرن من الزمان، يستبد بشئون الحكم، ويضعف اليقظة القومية، ثم نقل

١- سورة الأعراف، من الآية ١٢٦ .

٢- هو أحمد شوقى بن على بن أحمد شوقي، أمير الشعراء، ولد فى القاهرة لأسرة ذات جاه كبير، امتزجت فيها الدماء العربية والتركية والكردية، تعلم فى مدرسة الحقوق، ونفى أيام الحرب العالمية الأولى إلى إسبانيا لصلته بالخديو عباس الثاني، وبعد عودته أصبح أقرب إلى الشعور الوطني، وتوفى عام ١٩٣٢م.
(ينظر فى الترجمة: الأعلام ، الزركلى ، ج١/١٣٦ ـ شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضي، العقاد/١٥٣ هامش، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية – القاهرة ١٩٧٥م).

أو عـزل بعـد حادثـة دنـشواى ١٩٠٦م، وأبـى إلا أن يطعـن فـى المـصريين فـى خطبتـه التى خطبها فى حفل توديعه، فرماهم بالذلة والجحود، وأنذرهم بأبدية الاحتلال، واعتدى على شعورهم الديني" [١] .

وهنا نجد "شوقى" يتصدى له متهكما وساخرا منه حين يقول[٢]:

أيـــامكم أم عهـــد إسماعيـــلا ... أم أنـــت فرعـــون يـــسوس النـــيلا

أم حـــاكم فـــى أرض مـــصر بـــأمره ... لا ســـائلا أبـــدا ولا مـــسئولا

ـا رحلـت عـن الـبلاد تـشهدت ... فكأنـك الـداء العـياء رحـيلا

أوسـعتنا يـوم الـوداع إهانـة ... أدب لعـمرك لا يـصيب مثـيلا

أنـذرتنا رقـا يـدوم ونلـة ... تبقـي، وحـالا لا تـرى تحـويلا

أحـسبت أن اللّه دونـك قـدرة ... لا يملـك التغـيير والتبديـلا

اللّه يحكـم فـى الملـوك ولم تكـن ... دول تنازعـه القـوى لتـدولا

فرعـون قبلـك كـان أعظـم سـطوة ... وأعـز بـين العالمـين قبـيلا[٣]

فنحن نلمح فى نظم أمير الشعراء السابق كثيرا من أمارات السخرية والتهكم باللورد كرومر" وبسياسته الفاسدة فى البلاد، فهذا القائد حاكم فى أرض مصر بأمره لا يستشير أحدا، ولا يستطيع أحد أن يسأله عن ظلمه وجرمه ، وهذا منتهى الظلم والعسف السياسي، كما أن فيه إلغاء وإهمالا لشأن القادة والحكام المصريين فى ذلك الوقت،هؤلاء الذين كانوا يمثلون سلطة اسمية فقط فى البلاد.

ونجد فى قول شوقى:

ـا رحلـت عـن الـبلاد تـشهدت ... فكأنـك الـداء العيـاء رحـيلا

١- الفكاهة فى الأدب، الجزء الثاني، . أحمد الحوفى /١٠٧ بتصرف يسير.
٢- الشوقيات، المجلد الأول، الجزء الأول/١٧٣، ١٧٤ .
٣- الأبيات من بحر الكامل التام (عروضه صحيحة وضرب مقطوع).

تصويرا لثقل هذا الحمل الذى طرحته البلاد من فوق صدرها، وتصويرا لحالة القهر، وحجم الظلم الفادح الذى كانت البلاد تتجرعه على يد هذا القائد الغشوم كما أن فيه تصويرا لحالة الفرح والسرور التى عانقت قلوب المصريين عند رحيله من البلاد.

وتبدو سخرية شوقى وتهكمه "باللورد كرومر" وبسوء أدبه مع المصريين وطعنه فى أخلاقهم بوضوح فى بيته الرابع، "فكرومر" حتى اللحظة الأخيرة لم يراع شيئا من الأدب ولا المجاملة للمصريين مما جعل شوقى يقف فى وجهه شاهرا سلاح التهكم الذى يشعر صاحبه بشيء من التفوق والانتصار.

٢ـ الامتيازات الأجنبية:

من أسوأ الأمور التى ابتليت بها مصر فى ظل الاحتلال الإنجليزي، والتى كانت من أشد مساوئه خطرا وشراسة فى البلاد: ما عرف باسم "الامتيازات الأجنبية" وقد امتدت إلى ما بعد عام١٩٢٢م،ولم تلغ قانونيا إلا فى عام١٩٤٧م.

"والأصل فى الامتيازات الأجنبية تسهيلات وضمانات منحتها الدولة العثمانية للأجانب المقيمين فى أراضيها - ومنها مصر- وذلك تشجيعا لهم على الإقامة والتجارة واستثمار أموالهم فى النواحى الاقتصادية، ومن هذه التسهيلات والضمانات: محافظة الدولة العثمانية على أموال الأجانب وأرواحهم، ومنحهم حق الرجوع فى شئونهم التجارية والشخصية،وكذلك فى منازعاتهم إلى قناصلهم... ولكن هذه الامتيازات لم تلبث أن تطورت واستفحل خطرها، وذلك عندما دب الضعف فى الدولة العثمانية، فاستغل الأوربيون هذه الفرصة لتفسير تلك الامتيازات وفق هواهم، والخروج بها عن الحدود المقررة لهم، فانقلبت تلك الامتيازات بذلك سلاحا استغلوه لصالحهم على حساب مصلحة الأهالى ، وسياجا يحمى أغراضهم، ويخفى مطامعهم، ويمكن لهم فرصة توطيد نفوذهم فى البلاد" [١] .

١- تاريخ العرب الحديث والمعاصر، الدكتور /أحمد عزت عبد الكريم وآخرين/٦٥ .

ولعل الذى أدى إلى ازدياد خطر هذه الامتيازات فى البلاد: هو ضعف الحكومات والقيادات المصرية أيام الاحتلال وما وليه من حقب، حتى بدأ التفكير فى إلغائها من مصر عام ١٩٣٥م، ثم ألغيت قانونيا عام ١٩٤٧م.

وقد ترتب على ضعف الحكومة المصرية أن فتحت الأبواب للأجانب فى البلاد فاستوطنوا فيها، وكان منهم الموظفون، والصحفيون ، وأصحاب المحال التجارية والمصارف، وملاك الأراضى والعمارات، وأصحاب المدارس والمستشفيات كذلك وجدت فى مصر سبع عشرة محكمة قنصلية ، وكل محكمة تحاول محاباة رعاياها ومناصرتهم حتى ولو كانوا متلبسين بالجرائم!!

وفى أثناء ذلك، شعر المصرى بأنه غريب فى بلاده، ممتهن ومستعبد، ثم هو فى النهاية لا يجنى سوى خيبة الأمل، وضياع الرجاء.

وقد وقف شعراء مصر الوطنيون موقفا واضحا من هذه الامتيازات، فقد رفضوها وبينوا للناس مزالقها وعيوبها، وسخروا وتهكموا من أصحابها أشد ما تكون السخرية وأشد ما يكون التهكم.

يقول الشاعر الوطنى الثائر "فخرى أبو السعود" ساخرا من الامتيازات الأجنبية التى جعلت العدو الدخيل يتوغل فى البلاد غير عابئ بشىء [١] :

منتم أن منحتم شعب مصر ... كساء أو شرابا أو طعاما

وما رمتم بذلك غير مال ... حلالا نلتموه أو حراما

به أعليتم فى مصر دورا ... وأحرزتم بها الضيع الجساما[٢]

ولم تسعوا لها إلا ابتدارا ... إلى الفرص السوانح واغتناما

وما أموالكم إلا بلاء ... تسرب فى دم الوادى سماما[٣]

وداء فى مفاصله عياء ... مشى يبرى المفاصل والعظاما

١- ديوان فخرى أبو السعود/١٠٠ .

٢- الضيع: جمع ضيعة، والضيعة مال الرجل من النخل والكرم والأرض.

٣- السمام (بكسر السين) جمع السم (بتثليث السين) وهو القاتل.

مـــصاب النيـــل أنـــتم لـــو علمـــتم وأول راشـــــق فيـــــه الـــــسهاما[1]

وعند التأمل فى هذا النص، نجد الشاعر يعتبر هذه الامتيازات "مصيبة على الوطن" فهؤلاء الواغلين الذين أطلقوا العنان لأيديهم فى مصر، قد استحوذوا على كل شئ، وسيطروا على كل صغير وكبير من أعمال التجارة، وروافد الرزق، ولم يتورعوا عن التعاملات المشبوهة اغتناما للفرص السانحة التى تحقق لهم الكسب المادي، بينما يعيش أبناء البلاد فى أوطانهم كالأيتام على موائد اللئام.

وتكمن السخرية: فى أن الشاعر كشف عن نوايا المحتل الخبيثة، وعن مطامعه وشرهه، فما يقدمه المحتل للبلاد من كساء أو طعام أو شراب فى صورة منح لا ترد ما هو فى الحقيقة إلا طعم الهلاك، وشرك الأسر، فالعدو المحتل له يدان يد يقدم بها لأبناء الشعب المصرى إكليلا من الورد، وأخرى تخفى خنجره المسموم !!

كما تكمن السخرية اللاذعة فى تصوير هذه الأموال التى يطرحها العدو فى البلاد أملا فى الاستحواذ على رقاب أصحابها بصورة مخيفة ومقززة، فما هى إلا سموم نفثها العدو لتدخل فى كل جسد، فيحل به الإعياء الذى لا يبقى ولا يذر.

ويقول الشاعر "محمد الأسمر" [2] ساخرا من الامتيازات الأجنبية التى أدت إلى امتصاص العدو خيرات الوطن دون أبنائه[3] :

ـــى مـــصر مـــا للقـــائمين بأمـــركم يـــسومونكم أشـــياء ضـــل ســـبيلها[4]

هـــم حلبـــوا منهـــا الـــضرع جميعهـــا وصـــارت لهـــم أحزانهـــا وســـهولها

١- الأبيات من بحر الوافر التام.

٢- ولد الشاعر محمد الأسمر يوم الثلاثاء السادس من ديسمبر سنة ١٩٠٠ تحت سماء دمياط، تعلم فى الأزهر الشريف حتى تخرج فيه سنة ١٩٣٠م، وعين مشرفا على مكتبة الأزهر مما أتاح له فرصة الإطلاع والقراءة، نظم الشعر دون تكلف،وله ديوان شعرى جمع فيه ما قاله من الشعر حتى عام ١٩٥٠م، ثم صدر له ديوان بين الأعاصير، وهو يضم ما كتبه الشاعر بعد عام١٩٥٠م ، وقد توفى عام ١٩٥٦م .
(يراجع فى الترجمة: الأعلام، الزركلي، ج٧ /٨٥).

٣- ديوان الأسمر/٤٨٢، مكتبة الإنجلو المصرية ١٦٥ ش عماد الدين بمصر.

٤- سامه الأمر: كلفه إياه، وأكثر ما يستعمل فى الشر والظلم، والسوم:أن تكلف إنسانا مشقة.

فيالهف نفسى كيف نمتم على الأذى وأنـــتم فـــروع ضيعتهـــا أصـــولها
ولاة أمـــور النيـــل رفقـــا بأمـــة بـــشمتم عليهـــا وهـــى بـــاد نحولهـــا[1]

فـالأسمر هنـا يسأل سؤال تهكم: مـا بـال المحتل الواغل يتفنن فى تجشيم الأمة المصرية ألوانا من المظالم والمشقات دون أن يكون هناك داع لذلك ؟ !

ثم يكشف الشاعر عن ملامح هذا الظلم الذى نزل على الشعب المصرى بسبب الامتيازات الأجنبية فى البلاد، فيذكر أنهم امتصوا كل الخيرات، وحلبوا كل الضروع، ولم يتركوا ضرعا لمحتلب، وفى ذكر لفظ (جميعها) تأكيد لهذا المعنى.

ثم يصور الشاعر – فى بيته الأخير – العدو المحتل فى صورة الإنسان الضخم المتخم من كثرة المآكل والمشارب، وأنواع المتع التى اختطفها من أيدى أصحابها بينما أصحاب البلاد مهزولين محرومين حتى من أقل الحقوق.

وهى صورة هزلية مضحكة، وإن كانت تدل دلالة بينة على مدى الظلم الواقع على المصرى فى ذلك الوقت.

- ويقول شاعر النيل حافظ إبراهيم ساخرا من استئثار الغريب الدخيل بخيرات الوطن، وحرمان أهله بسبب ظلم الامتيازات الأجنبية[2] :

أيهـــا النيـــل كيـــف نمـــسى عطاشـــا فـــى بـــلاد رويـــت فيهـــا الأنامـــا
بـــرد الواغـــل الغريـــب فـــيروى وبنـــوك الكـــرام تـــشكو الأوامـــا[3]
إن لـــين الطبـــاع أورثـــنا الـــذل وأغـــرى بنـــا الجنـــاة الطغامـــا[4]

فحـافظ – هنـا – يسأل النيـل المرمـوز بـه إلى مـصر سـؤال سـخرية وتهكـم : كيـف يمـسى عطشانا من يجرى النيل فى جوفه؟ والعطش هنا: رمز الحرمان الذى يعانى منه الشعب المصري،

١- الأبيات من بحر الطويل.
٢- ديوان حافظ إبراهيم/٣١٧ .
٣- الواغل: الذى يدخل على القوم فى طعامهم وشرابهم دون أن يدعى. والأوام: شدة العطش.
٤- الطغام (بفتح الطاء) : أوغاد الناس، والأبيات من الخفيف التام.

فيحرم حتى من أقل حقوقه المشروعة وهى شربة الماء! بينما غيره من الواغلين الغرباء يتمرغون فى نعيمه، ويستأثرون بينابيعه لترى ظمأ نفوسهم الشرهة المسعورة !

وهذا الفساد السياسى مرتع خصب للسخرية والتهكم ، حين تبدو العيوب والنقائص والسلبيات فى صورة تثير الاشمئزاز، مما يدفع الأدباء إلى إشهار أسلحتهم التعبيرية فى محاولة للإصلاح والتقويم.

وتتجسد السخرية من خلال هذا التناقض الغريب، والذى يتجلى فى حرمان أهل البلاد من خيراتها، على حين أن الغرباء يتمتعون بكل ما فيها دون حق أو شرعية.

- ويقول "شوقي" متهكما بالاحتلال البريطانى الذى ابتليت به البلاد، ففرض عليها من الامتهان ما استغل به خيراتها، وشرد أهلها، وأطلق أيدى الغاصبين على ما حرمه على أهل الوطن[1]:

أحـــرام علـــى بلابلـــه الـــدو ح حـــلال للطـــير مـــن كـــل جـــنس[2]

كـــل دار أحـــق بالأهـــل إلا فـــى خبيـــث مـــن المـــذاهب رجـــس[3]

وسؤال شوقى هنا، سؤال تهكم وسخرية، فهو يسخر من فساد الواقع السياسي الذى أباح خيرات البلاد لكل غاصب دخيل، بينما هى – فى عرفه – حرام على أبناء الوطن وهذا غاية ما ترمى به البلاد من ظلم وتعسف.

ويسخر الشاعر "أحمد الكاشف" من الامتيازات الأجنبية التى أعانت الدخيل على اغتصاب ما ليس له من الحقوق،ويسرت له سبل النهب والسرقة،فيقول[4]:

وحديقـــة أضـــحت ولكـــن (م) للغريـــب جنـــى الحديقـــة

إن اســـتبد بنيلهـــا قتـــل الـــشقيقة بالـــشقيقة

١- الشوقيات، ج٢/٢٦، طبعة دار الكتاب العربى – بيروت.
٢- الدوح: جمع دوحة، وهى الشجرة العظيمة المتشعبة.
٣- البيتان من بحر الخفيف التام.
٤- ديوان الكاشف/٢٩٨ ، "مجزوء الكامل".

هـــل تملـــك اليـــوم اختيـــا(م) ر مـــــصيرها الأمـــــم المـــــسوقة
لـــــيس التعلـــــل بالمنـــــى ســـــببا إلى العقبـــــى الـــــسحيقة
أيـــضن بالغيـــث الـــسحا(م) ب وطالمـــــــــا والى بروقـــــــــه
فـــــى بوقـــــه نفـــــخ النذيـــــر(م) وقـــــــد بلونـــــــاه وبوقـــــــه
أيريـــــد مـــــا فـــــى سوقنـــــا نهبـــــا ولا نرتـــــاد سوقـــــه

ويقول الشاعر "على الغاياتي" ساخرا من تلك الامتيازات الأجنبية التى أصابت البلاد بالجدب والجفاف والأزمات" [1] .

يـا ربـى النيـل جـادك النيـل هـل أجـ (م) دبـــت مـــن قبـــل هـــذه الـــسنوات؟
ـــل ســـنو يوســـف أبـــر بمـــصـــر أم ســـنو الاحـــتلال والأزمـــات ؟
مـــا لمـــصر تنكـــرت ورماهـــا ســـئ الحـــظ فـــى يـــد الـــسيئات؟ [2]

فالشاعر يسأل ربى النيل سؤال تهكم وسخرية ، فيقول لها: "هل أجدبت من قبل هذه السنوات؟ " أي: من قبل سنوات القهر السياسى والتدخل الأجنبى الآثم الذى امتص خيرات الوطن حتى أصبح خرابا بلقعا.

ويتسأل أيضا: هل كانت سنوات الجدب والشقاء التى أصابت البلاد على عهد نبى الله يوسف "عليه وعلى نبينا السلام" أبر بمصر أم سنون الاحتلال التى أرهقت البلاد وألهبت ظهور أهلها بسياط الظلم والاستبداد والتعسف؟!

والسخرية واضحة من أسلوب المقارنة الذى استعمله الشاعر ليقارن به بين حالين: حال مصر فى عهد سيدنا يوسف "عليه وعلى نبينا السلام" وحالها فى عهد الاحتلال الإنجليزي.

١- ديوان وطنيتى/٨٦ .
٢- الأبيات من بحر الخفيف التام.

والمقارنة هنا قائمة على المفارقة لأنها كشفت عن فساد زعمهم، إذ كانوا يزعمون أن تكون مصر في عصر الاحتلال أحسن حالا؛ لأنه كما في زعمهم عصر الحرية، والتقدم والاستثمار، وحماية الشعوب الضعيفة، والارتقاء بالمستوى العام للجماعات .. إلخ.

لكن أن يكون العكس هو الصحيح فهذه مفارقة عجيبة؟ وسخرية لاذعة.

ويقول الشاعر "على الجندى" [1] ساخرا من جناية الامتيازات الأجنبية، على أهل الوطن[2]:

بلابل النيل تجفوها خمائله ... والبوم يمرح بين الزهر والعشب

بتنا عبيدا لأوشاب زعانفه ... لا يعرفون لهم ربا سوى الذهب[3]

نالوا الثراء بحرب لا ضمير لها ... جرت على الصيد ذيل الويل والحرب[4]

لو أنصفت مصر ما عاش اللئام بها ... بجر البطون وما متنا من السغب[5]

مصوا الدماء فشبت في دمائهم ... جمرا يحر عليها غير ذى لهب [6]

يكشف الجندى عن سوءة أخرى من مساوئ الامتيازات الأجنبية فى البلاد: وهى أن أبناء البلاد الأصليين سارو فى بلادهم كالعبيد، تتصرف فى شئونهم شرذمة من أراذل الخلق الذين فقدوا ضمائرهم وإنسانيتهم فى صحراء الطمع والجشع وحب السيطرة وأشربوا فى قلوبهم حب المال وامتصاص دماء الشعوب.

١- هو على السيد سليمان الجندى، من مواليد شندويل بمحافظة سوهاج، تلقى تعليمه الأول بكتاب القرية ثم انتقل إلى مدرسة المعلمين الأولية بسوهاج، ثم سافر إلى القاهرة ودرس بالأزهر، ثم التحق بدار العلوم، وحصل على دبلومها عام ١٩٢٥م ثم توقى فى مناصبها أستاذا مساعدا فأستاذا فوكيلا فعميدا ثم احيل إلى المعاش سنة ١٩٥٨م وتوفى فى ٣ يونيو عام ١٩٧٣م. (ينظر فى الترجمة: تقويم دار العلوم فى مائة عام ٢ ج٢، ١١٣ ، عام ١٤١١هـ/١٩٩١م – الأعلام ، الزركلى ج٤ ص٢٩٣).

٢- ديوان ألحان الأصيل/١١٦ دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٥٠م.

٣- الأوشاب: الأخلاط من الناس ومفرده وشب. والزعانف ردئ كل شئ ومفرده زعنفه أو زعنفه.

٤- الصيد: جمع أصيد وهو المتكبر المزهو بنفسه .

٥- البجر: جمع أبحر، وهو عظيم البطن.

٦- الأبيات من بحر البسيط التام.

وتكمن السخرية هنا فى وصف الشاعر لهم بلفظ (البوم) بماله من شكل مستكره وصوت مذموم، ودلالة على الخراب.

كما تبدو السخرية فى وصفهم بـ(بجر البطون) الذى يوحى بالثراء والرفاهية والتمتع بطيبات الحياة، بينما أبناء الوطن فى المقابل يتجرعون غصص الجوع، ويجودون بأرواحهم من شدة الشغب.

والسخرية هنا قائمة على المقارنة بين حالين أو وصفين يقودان فى نهاية الأمر إلى مفارقة عجيبة، وتناقض ترفضه طبيعة الأمة المصرية.

ويقول الشاعر: "محمود أبو الوفا" [1] ساخرا من مظهر آخر من مظاهر الامتيازات الأجنبية فى البلاد،والذى أدى بدوره إلى مزيد من مساوئ الاحتلال ومفاسده[2] :

ـم القوم اللئام فمذ رأونا	نكرمهم أبوا أن يكرمونا
ولو أنا أهنا هم قديما	لما كانوا لنا يستصغرونا
أنسقيهم ذلاك النيل صرفا	ونشرب بعدهم كدرا وطينا
أنرضى الإنجليز يكون منهم	قضاة فى المحاكم يحكمونا
أنرضى الإنجليز يكون منهم	أطباء لنا ومشرعونا
أنرضى الإنجليز لملك مصر	وهم قبل التملك عذبونا[3]

١- هو محمود أبو الوفا ولد عام ١٩٠١م فى الانشاصية بالدقهلية، درس فى الأزهر الشريف وأصيب بمرض ألجأه إلى بتر ساقه، له ديوان شعرى جمع بعد وفاته بعام سنة ١٩٧٩م (ينظر فى الترجمة: محمود أبو الوفا حياته وشعره رسالة ماجستير بمكتبة جامعة الأزهر للباحث /عبد الجواد محمد عبد الحميد/٨٨ .

٢- محمود أبو الوفا – دواوين شعره ودراسات بأقلام معاصريه /٣٤١، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٧م.

٣- الأبيات من بحر الوافر التام.

أراد الخديوى إسماعيل أن يعمل على إصلاح المفاسد التى كانت تحدث فى المحاكم القنصلية ، ففكر فى إصلاح النظام القضائى فى مصر، فأنشأ بالاتفاق مع الدول الأجنبية محاكم مختلطة كان أكثر قضاتها من الأوربيين[1] .

وبالنظر، نجد أن هذه المحاكم كانت امتيازٌ جديدا أعطى للإنجليز فى البلاد مما زٌد نفوذهم فى سلطة القضاء، والتشريع، وفى المجال المالى والاقتصادي.

"وقد جاء نظام المحاكم المختلطة قلبا للأوضاع المألوفة، إذ بدلا من أن يخضع الأجانب للقضاء القومى ولقوانين الدولة، كما هو حاصل فى البلاد الأخرى أصبح المصريون خاضعين للقضاء المختلط، فغدوا بذلك غرباء فى بلادهم وعرضة لضياع حقوقهم....ولم يقتصر خطر المحاكم المختلطة على الناحية القضائية، بل امتدت إلى السلطة التشريعية كذلك؛ لأن إنشاء هذا النظام أكسب الدول المتمتعة بالامتيازٌت الأجنبية حقا جديدا مؤداه: أن التشريع الذى يسرى على الأجانب لا يكون نافذا إلا إذا صدقت عليه الجمعية العمومية لقضاة المحاكم المختلطة، وبذلك شاركت المحاكم المختلطة فى سلطة التشريع بالنسبة للأجانب، وهو اعتداء سافر على سيادة الدولة" [2] .

ولم تتخلص البلاد من هذا الظلم السافر إلا بعد أن ألغيت الامتيازٌت الأجنبية فى مصر بعد معاهدة ١٩٣٦م بين مصر وإنجلترٌ.

والشاعر محمود أبو الوفا يسخر هنا من هذا النظام السياسى الفاسد، حين يتولى إصدار الأحكام فيه - فى محاكم البلاد - قضاة أجانب، يتكلمون بلغة تخالف لغة المصريين، ولو كان هناك إنصاف لكان العكس، وهو أن يخضع الأجانب المقيمون فى مصر لدستورها وقوانينها.

١- يراجع: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، د/أحمد عبد الكريم وآخرين/٦٦ .
٢- تاريخ العرب الحديث والمعاصر، للدكتور أحمد عزت عبد الكريم وآخرين/٦٥، ٦٦ .

- ويقول الشاعر فخرى أبو السعود ساخرا من قيد الامتيازات الأجنبية الذى طوق رقاب أبناء الوطن بقيد من حديد[1] :

أشـــلوا عـــن تجارتنـــا يديهـــم فقـــد ملكـــوا بهـــا منـــا الزمامـــا[2]
وقـــدوا عـــن معاصـــمنا امتيـــاز يكبلنـــا بـــه القـــوم اهتـــضاما[3]
حبونـــاهم بـــه أمـــس اختيـــارا فغلونـــا بـــه اليـــوم التزامـــا
ولم أر مثلـــــه ذلا وعـــــارا وغبنـــــا للعدالـــــة واحترامـــــا
جزونـــا عـــن قـــديم الفـــضل شـــرا وجازونـــا عـــن الـــود انتقـــاما
أذاقونـــا المذلـــة فـــى حمانـــا وإن نـــصمت أذاقونـــا الحمامـــا[4]

ضيقت أغلال الامتيازات الأجنبية على مصر فى مختلف الشئون، مما جعل أهلها يضيقون ذراعا بهذه الامتيازات، ويحاولون بشتى الطرق أن ينتزعوا هذه الأغلال من حول أعناقهم ، ليتحرروا من رق هذا الاستعباد السياسى دون أن يكون لاحد عليهم وصاية أو حماية ولعلك واجد هذه الرغبة الأكيدة فى قول (فخرى):

وقـــدوا عـــن معاصـــمنا امتيـــاز يكبلنـــا بـــه القـــوم اهتـــضاما

ولعلك أيضا شاعر بثقل الامتيازات الأجنبية، وفداحة خطبها، وعرقلتها لحركات الإصلاح فى المجتمع من خلال ما تصوره كلمة (يكبلنا) بجرسها المعبر ولعل ألذع ما تكون السخرية فى هذا النص، ما ورد من قول الشاعر:

جزونـــا عـــن قـــديم الفـــضل شـــرا وجازونـــا عـــن الـــود انتقامـــا

١- ديوان فخرى أبو السعود/١٠١ .
٢- أشلوا: من الشلل وهو يبس اليد وفسادها والمراد هنا: القطع.
٣- قدوا: من قد يقد قدا، والقد هو القطع المستأصل والشق طولا .
٤- الأبيات من بحر الوافر التام.

إذ يصور فيه الشاعر المحتل الدخيل فى صورة من فقد ضميره وإنسانيته واتخذ من قانون الغاب إلها له، ومن هذا المنطلق أخذ يجازى أهل الفضل على فضلهم بالشرور ويجازى أهل الود على صدق ودهم بالانتقام، فكان جزؤهم منه – بذلك – جزء سنمار[1].

وهذه سخرية مؤلمة وموجعة حين يجزى على الإحسان بالإساءة.

هذا، وتدل شواهد السخرية والتهكم السابقة دلالة واضحة على كره المصريين وتبرمهم بالامتيازات الأجنبية التى منحتها الدولة العثمانية للأجنبى المحتل، "لأن أولئك الأوربيين استغلوها استغلالا دنيئا، فطغوا فى بلاد غير بلادهم ونظروا للمصريين على أنهم الغرباء المستباح ذمارهم، وابتذوا أموالهم، واعتدوا على حقوقهم، وهم آمنون من القصاص العادل، لأن الحكومة المصرية لا تستطيع ردعهم والمحاكم المختلطة لا تنصف المصريين منهم وحكوماتهم تمد لهم فى غرورهم.

وقد نوه بمساوئ الامتيازات بعض الأجانب أنفسهم، مثل كرومر، وغورست وكتشنر، وميلنر" [2].

٣- مطل الوعود ونقض العهود:

من أفظع ما ابتليت به مصر من مظالم الاحتلال ومساوئه: المماطلة فى الوفاء بالوعود بالجلاء عن أرض الوطن، فكم أعطى العدو المحتل وعودا وعهودا بالرحيل عن البلاد، ثم ضاعت هذه العهود والمواثيق، وماتت تحت رماد الغدر والخيانة.

وكأن قوله – تعالى-: "كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ" [3]

كان يقصدهم. وأمام هذا النفاق السافر، لم يقف شعراء مصر فى هذه المرحلة مكتوفى الأيدى، معقودى الألسنة، باعتبار أن هذا الخلق يعد خلقا سلبيا ومذموما

١- سنمار: بناء رومى بنى قصرا للنعمان اللخمي، فأجاد، فجازاه بإلقائه من فوقه؛ لكى لا يبنى مثله لغيره.
٢- الفكاهة فى الأدب، د/أحمد الحوفي، ج٢/١١٥، ١١٦ .
٣- سورة التوبة: آية: ٨ .

بما يجعل صاحبه مستحقا للعقوبة والقصاص، كنوع من التخفف من ثورة الغضب الذى يسيطر على بعض النفوس المقهورة، ثم إن فيه دلالة على بغض الشعوب وكرهها لهذا الخلق المذموم.

وقد تجلى موقف الشعراء المصريين هنا حينما وقفوا بسلاح سخريتهم فى وجه هذه النقائض.

- يقول الشاعر "محمد الأسمر" ساخرا من مماطلة العدو المحتل فى الوفاء بوعوده بالجلاء عن أرض الوطن[1] :

ساسة الغرب وعدهم كله مطل (م) وشر الوعود ما كان مطلا

كم مواثيق سطروها بأيديهم (م) وليست إلا أساطير تتلي

كم عقود مشوا بها لأناس فاستحالت من بعد ذلك غلا[2]

ما وراء الكلام غير كلام أو أباطيل تخدع الناس شكلا

صوروها فى صورة الحق للنا (م) وليست إلا افترا وهزلا[3]

فالشاعر يكشف النقاب عن سياسة المماطلة ، وكسب الوقت التى يطبقها قادة الاحتلال فى مصر، فكثير من العهود والمواثيق قد ألزموا أنفسهم بها لينجلوا عن البلاد، ثم ما كانت فى نهاية المطاف إلا حلما تبدد، أو أساطير محالة، أو كانت هذه العهود والمواثيق تمثل نوعا جديدا من إحكام قبضتهم على البلاد وأهلها والتمكين لأنفسهم فيها.

ومما أدى إلى انخداع المصرين بهذه السياسة المضللة: حسن نواياهم، ثم حسن عرض العدو المحتل لإغراءاته وخدعه بطريقة خلابة، وجذابة تبدو – فى الظاهر- كأنها حق

١- انظر كتاب: مع الشعراء المعاصرين، د. محمد خفاجي/١٠٠، ١٠١، المطبعة المنيرية ١٩٥٦م.
٢- الغل: طوق من حديد أو جلد يجعل فى اليد أو العنق.
٣- الأبيات من بحر الخفيف التام.

خالص، وبذلك شدت قلوب المصريين وعقولهم بعنف إلى الاستجابة لنداءات العدو وجعلتهم يتهافتون عليه تهافت الفراش على النار.

وتكمن السخرية – هنا- فيما يبدو فى هذا النص من مفارقات غريبة، بدت ملامحها فى مجئ نتائج الأفعال على عكس ما توحى به المقدمات، كالمواثيق التى هى فى النهاية: أساطير. وعقود الجلاء : التى أصبحت فى النهاية غلا يكتم أنفاس أبناء الوطن.

- وفى نفس هذا المقام، نجد "أحمد شوقي" يسخر من خداع إنجلترا ومراوغتها فى إعطاء مصر حريتها فيقول[1] :

اليوم أخلفت الوعود حكومة ... كنا نظن عهودها الإنجيلا

خلت على حكم الوداد وشرعه ... مصرا،فكانت كالسلال دخولا[2]

هدمت معالمها وهدت ركنها ... وأضاعت استقلالها المأمولا

فشوقى – هنا – يسخر من حكومة إنجلترا، التى أخلفت الوعود والمواثيق التى تلزمها بالجلاء عن مصر، فكانت بذلك كالمرض العضال الذى يصيب صاحبه فيهزله ويقتله فى كل لحظة، وكلما تعلق الأمل بالبرء منه، تلاشى هذا الأمل، وتبدد إلى غير رجعة.

* ويقول "حافظ إبراهيم" ساخرا من كثرة العلل التى يتعلل بها القوم لتبرير تقاعسهم عن الجلاء عن أرض الوطن[3]:

قد أنكروا حق الضعيف فهل أتى ... إنكار ذاك الحق فى إصحاح[4]

كم خدرت أعصاب مصر نوافح ... لوعودهم كنوافح التفاح[5]

فتعلل المصرى مغتبطا بها ... أرأيت طفلا عللوه بداح [1]

١- الشوقيات ، المجلد الأول ، الجزء الأول/١٧٤ .

٢- السلال (بضم السين): هوداء السل، وهو مرض قاتل.

٣- ديوان حافظ إبراهيم /٤١٣.

٣١- الإصحاح: من الأقسام التى تنقسم إليها اسفار التوراة والإنجيل.

٤- نوافح التفاح: روائحه، وكان الشاعر يعتقد أن نفحة التفاح منومة.

٥- الداح: نقش يلوح به للصبيان يعللون به.

وتـأنقوا فـى الخلـف حتـى أصـبحت أقـوالهم تـذرى بغـير ريـاح [٢]

فهذا المحتل الدخيل قد أنكر حقوق الضعفاء فى الحرية والحياة الكريمة وكلما طالب الضعفاء والمقهورين بنيل حريتهم ، سارع إلى تخدير أعصابهم بالوعود الخادعة البراقة، ثم تأنق – بعد ذلك – فى خلف الوعد، ونقض العهد، والسخرية تكمن فى البيت الأول، حين يسأل الشاعر سؤال تهكم وسخرية قائلا لهم: هل أحل لكم إنكار حق الضعيف فى كتاب سماوى فأنتم تنكرون حقه فى الحياة لذلك ؟! أم أن إنكار حقوق الآخرين طبع فى نفوسكم ؟ !

والسخرية تدل دلالة بينة على مظالم المحتل الدخيل، وكفره بحرية الشعوب التى هى أغلى الأمانى الإنسانية.

وبين "شوقي" وحافظ" فرق كبير فى السخرية هنا، فالأول: شديد عنيف، والثاني: مستسلم خاضع يائس.

* ومما يدل على يأس "حافظ" قوله[٣]:

وأكـبر ظنـى أنـى يـوم جـلائهم ويـوم نـشور الخلـق مقترنـان
إذا غاضـت الأمـواه مـن كـل مزبـد وخـرت بـروج الـرجم للحـدثان
وعـاد زمـان الـسمهرى وربـه وحكـم فـى الهيجـاء كـل يمـاني
هنـا اذكـرا يـوم الجـلاء ونبهـا نيامـا علـيهم ينـدب الهرمـان

فالناظر إلى هذا النص ، يجد"حافظ" يسخر فيه من الآملين فى جلاء المحتل عن البلاد، وهى سخرية مشوبة بنغمة عالية من اليأس الضارب فى أعماق النفس فهو يرى أن جلاءهم محال، ولذا فهو يعلق هذا الجلاء على ظهور علامات الساعة: من سقوط الشهب، وجفاف المياه، أو رجعة الزمان القهقرى إلى عهد القتال بالسيوف والرماح.

٦- الأبيات من بحر الكامل التام.

٣- ديوان حافظ إبراهيم /٣١٩، ٣٢٠ .

ونحن لا نوافق "حافظ" على هذه النغمة اليائسة، وإن كانت فى نفس الوقت تصور حقيقة كان يشعر بها كثير من أبناء الوطن فى ذلك الوقت، فقد أصيبوا بخدر الاحتلال بعد إخفاق الثورة العرابية ، ولأن دعوة مصطفى كامل لم تكن قد دوت فى البلاد بعد.

*وعلى نفس هذا الدرب تبدو خطا شاعر النخيل "محمود حسن إسماعيل" [1]الذى يسخر من مماطلة العدو الدخيل ومراوغته فى الجلاء عن البلاد، يقول[2] :

سبعون عاما يدوخ الدهر فى يدها ... والنيل يزأر فى القضبان كالأسد

وبينكم غاصب يرجى المحال ... ولا يرجى له بوفاء العهد أى غد

عاهدتمو، ومن يا قوم ضللكم ؟ ... عهد الذئاب زمان كاذب الأمد

حرية الشعب لا تعطى بموعدة ... ولا تنال بميثاق ومستند[3]

وسخرية الشاعر – هنا – تبدو فى وصفه لأخلاقيات هذا الغاصب المعتدى؛ إذ يذكر الشاعر أن الشئ المحال قد يرجى وقوعه وتتعلق به بواعث الأمل، أما وفاء المحتل بالعهود والمواثيق ، فلا يتعلق به أمل ألبته.

والسخرية – هنا- تعبر عن فقدان الأمل فى الخلاص من هذا العدو الغاصب؛ لأن حرية الشعوب لا تتحقق بوعد أو ميثاق أو مستند مكتوب، إلا إذا قصد بذلك نوع من التلاعب والمراوغة والمماطلة ، وإلا فوعد الصادق: هو الكلمة الجريئة الحرة التى تقع فى إطار التنفيذ الفعلي.

٤- إهمال جوانب الإصلاح والتطوير فى المجتمع:

١- ولد فى قرية "النخيلة" بمحافظة "أسيوط"، تخرج فى دار العلوم سنة ١٩٣٦م، ثم سلك طريق الوظائف العامة، فعمل محررا بمجمع اللغة العربية ثم مستشارا ثقافيا لهيئة الإذاعة لمراقبة البرامج الدينية، له دواوين شعر كثيرة، منها: أغانى الكوخ، وهكذا أغني، وأين المفر، والملك، ونار وأصفاد، وقاب قوسين .. نال جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٦٥م، ولحق بالرفيق الأعلى سنة ١٩٧٧م.
(ينظر:شعراء الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث، أحمد عبد اللطيف الجدع، وحسن أدهم جرار، ج٧٧/٥، طبعة مؤسسة الرسالة).

٢- الأعمال الكاملة ج٩٥٦/٢، الطبعة الأولى، دار سعاد الصباح ١٩٩٣م.

٣- الأبيات من بحر البسيط التام.

معلوم أن الاحتلال الإنجليزى عندما دخل أرض مصر، عمل – بطريقة غير مباشرة – على تعطيل بعض جوانب الإصلاح فى المجتمع المصري، حتى تضعف همته، ويضطر أبناؤه إلى الخضوع لأطماع المحتل الدخيل الذى يخطط لهم بالليل وبالنهار.

كما عمل المحتلون فى المقابل على بسط نفوذهم داخل القطر المصرى ، مستغلين ما عرف بالامتيازات الأجنبية أولا، ثم مستغلين الأزمة المالية التى اتخذتها دول أوربا ذريعة للتدخل فى شئون البلاد الداخلية .

ولعل ما كان ينتاب مصر من الفتن والمكايد الوهمية المقصودة لتمزيق سد الأمة وإبراز ما بين قادتها من تطاحن وعداء، كان عاملا كبيرا من عوامل الإطاحة بفرص الإصلاح، وإظهار المصريين فى صورة المستحق للمزيد من الازدراء فى نظر أعداء البلاد[1].

وبناء على ذلك، عطل الدستور ، وأهمل التعليم، وأقصى المصريون عن مهام الوظائف والرتب، "مما كان حافزا قويا يدفع الشعراء المصريين إلى السخرية.

*يقول الشاعر "أحمد الكاشف" ساخرا من سياسة الخداع والمراوغة التى يستعملها المحتل مع أبناء الوطن[2] :.

بثت تبدو فى زخارف مخلص	للقوم تخفى ما اعتزمت وتحجب
غافلتهم حينا فلم يتلفتوا	إلا ونابك فيهم المخلب
هل أنت فينا فاتح أو وارث	أو قيم أعلى، وجار أقرب
أو أنت فينا مصلح متطوع	للخير أو مستأصل مستوعب
أينول الدستور قيصر قومه	وتقوم فينا تستبد وترهب[3]

١- راجع: الانتماء فى وجدان أمير الشعراء، د٠حلمى أبو العز/٩٩، ١٠٠ الطبعة الأولى، التركى لطباعة الأوفست والكمبيوتر – طنطا ١٩٩٦م٠

٢- ديوان الكاشف/٢٢٩، ٢٣٠ ٠

٣- الأبيات من بحر الكامل التام٠

فالشاعر – فى النص السابق – يكشف عن خداع "كرومر" وتغريره بأهل البلاد فقد لبس لهم مسوح الضأن ، بينما هو ذئب فاتك، وظل يخادع المصريين ويهادنهم حتى أنشب نابه ومخلبه فيهم، وأراد أن يحطم آمالهم، ويغتال حرياتهم على صخور القهر والاستبداد حين قال فى تقرير عنهم: إنهم ما زالوا غير قادرين على حكم أنفسهم.

والتهكم به ظاهر فى ثنايا النص، ولاسيما فى البيت الأخير الذى يتساءل فيه الشاعر سؤال تهكم ودهشة: أيعطى قيصر قومه الدستور والحياة النيابية، وأنت فينا ما زلت تستبد فى حكمك، وترهبنا بأفعالك ؟!

*ويقول الشاعر "على الغاياتي"[1] ساخرا من المحتل الدخيل الذى عرقل حركات النهوض فى البلاد، بسبب ما ألقاه بينهم من عوامل الانتكاس والانكسار، وذلك من قصيدة له تحت عنوان: "نحن والاحتلال" [2] :

دالت الأيام واحتل الحمى ... ظالم عن ظلمه لم ينثنم[3]

لفظته أرضه من بعد ما ... أطمعته نفسه فى الأمم[4]

فهو فى الهند وفى مصر وفى ... كل أرض شر ضيف نهم

ناكث الأيمان فى أيمانه ... حانث لم يحتفظ بالذمم[5]

باعث الجهل، مميت للحجا ... خاذل الحق،نصير المجرم[6]

وبالتأمل فى هذا النص، نجد أن الشاعر قد ضمنه أمرين: الدافع إلى سخريته من المحتل، ثم إبراز مظاهر هذه السخرية.

١- هو على بن محمود الغاياتى الدمياطى المصري، ولد بدمياط عام ١٨٨٤م، وتعلم بها واشتغل بالأدب، وانتقل إلى القاهرة، عام ١٩٠٧م، وكان من محررى "الجوائب المصرية" اشتهر بنظم الشعر السياسي، وتعرض بسبب ذلك للمتاعب، وله ديوان "وطنيتي" وديوان "هجرتي" و"فجر الثورة" توفى بالقاهرة عام ١٩٥٦م. (ينظر: الأعلام ، والزركلى ج٥/٢١).

٢- ديوان وطنيتي/٨٥، ط٣، مطبعة منير الشرق – القاهرة ١٩٤٧م.

٣- دالت الأيام: دارت.

٤- لفظته أرضه: طرحته.

٥- ناكث : ناقض . حانث : كاذب.

٦- الأبيات من بحر الرمل التام.

ويبرز الدافع إلى السخرية من المحتل هنا في: إصراره على ممارسة الظلم والبغى بشتى صوره مع أبناء الوطن ، وكأنه لا ينام عن التفنن فى هذه المظالم، وإذا نام فما ذلك إلا للتفكير فى لون جديد من الظلم يوقعه على أهل البلاد.

وتكمن السخرية هنا فى البيت الثانى فى قوله: "لفظته أرضه" وهو بمعنى طرحته ورمته، واستعمال اللفظ هنا يدل على الكراهية وعدم التحمل، كما أن إسناد الطرح أو اللفظ إلى الأرض فيه مبالغة وتأكيد لهذه الكراهية، وكأن الأرض التى لا تعقل تكرههم كذلك، وهى سخرية عميقة ومؤلمة.

كما تكمن السخرية فى وصف هذا الدخيل بأنه ناقض الأيمان، كاذب لا يحتفظ بعهد، ولا يوفى بذمة، فهو يلوح للأمة بشعاع الأمل، وبريق النجاة ، حتى إذا استفحل الأمل فى نفوس أبناء الوطن، وتراءت لهم – فى أحلامهم – مظاهر الإصلاح والبناء، أخلف وماطل وقتل الآمال البريئة تحت رماد الغدر والكذب.

وهذه سخرية لاذعة من عدو منافق كذوب.ثم يعدد الشاعر – فى بيته الأخير – بعضا من سياسة المحتل الخرقاء التى تعرقل نهوض البلاد، وتودى بآمالها، فهذا العدو: يحاول بعث الجهل ونشر العماية بين أبناء الوطن من المصريين، وتعطيل إعمال الفكر والعقل، وخذلان الحق ومناصرة المجرمين .

وكفى بهذه السلبيات والنقائص دافعا إلى الوقوف فى وجه هذا العدو المحتل بسلاح السخرية القاتل.

*ويحاول "هاشم الرفاعى" إلقاء المزيد من الأضواء على هذه الفكرة، حين يقول[1]:

وفى الغرب جزّار سعى غرب نصله ... بأسود قتال من الحقد فاحم[2]

يعتق خمرا من دماء أباحها ... ويصنع كأسا من عظام الجماجم

يداه: يد تدنى إلى الكون حتفه ... فتشحذ أمضى شفرة للجرائم

١- ديوان هاشم الرفاعى (الأعمال الكاملة) /١٧٣، ١٧٤ .

٢- غرب نصله: أي: حد سيفه (اللسان، ج١/٦٤٠).

وأخـــرى تعـــين المعـــوزين معونـــة تـــشاب إذا ســـيقت بـــسم الأراقـــم[1]
يؤرقـــه أن يبنـــى الـــشرق عـــزة فيهـــرع مـــذعورا بمعـــول هـــادم
ويـسكب فـى الأسمـاع لفظـا منمقـا لنـسبح فـى حلـم مـن الأمـن واهـم
ونـصحو علـى قـصف المـدافع ناعيـا إلينـا مواثيـق العـدو المهـاجم[2]

فى هذا النص ، يكشف الشاعر "هاشم الرفاعي" عن سوءة أخرى من سوءات الاحتلال الإنجليزى فى البلاد: فهذه الأموال التى تتدفق على البلاد من قبل المحتل تحت ما يسمى "بالقروض أو المساعدات أو المنح غير المردودة" ما هى إلا وسيلة جديدة من وسائل هدم وتقويض البناء القائم، فقد أدى تراكم هذه الأموال فى مصر إلى تدخل أجنبى جديد وسيطرة كاملة على مالية البلاد "فقد خصصوا نصف ميزانية البلاد لتسديد هذه الديون واتبع الإنجليز سياسة اقتصادية لا تخدم إلا مصالحهم سواء فى مجال الزراعة أو الصناعة، أو الاستثمارات التجارية أو العقارية، بحيث صار أصحاب المال الأجنبى هم المسيطرين على حياة البلاد الاقتصادية" [3].

فهذا العدو الماكر يمد يده للمحتاجين بالمعونة والمساعدة، ولكنها ممزوجة بالسموم والكروب والنقم.

وتكمن السخرية – هنا – فى تعرية الشاعر لمظاهر النفاق والخداع التى يمارسها هذا العدو الدخيل للتغرير بأهل البلاد، وتقديم السم فى الدسم لهم.

ويسخر الشاعر – كذلك – فى بيته الخامس من المحتل الذى يحاول – قدر استطاعته – اغتيال حركات النهوض والصحوة فى البلاد، حتى تظل العقول والأفهام

١- الأراقم: جمع أرقم، وهو نوع من الثعابين المشهورة بسمها.
٢- الأبيات من بحر الطويل.
٣- تاريخ العرب الحديث والمعاصر، للدكتور/أحمد عزت عبد الكريم وآخرين/٩٨، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر ١٩٨٩م.

تسبح فى جو من الأحلام والأوهام الخادعة، وبذلك يتحقق له، ما يريد من إلحاق الهزيمة النفسية ، والضعف العام فى صفوف المصريين.

*ويقول "أحمد شوقي" متهكما بالإصلاحات التى زعم "كرومر" وأتباعه، أنهم أدخلوها مصر، ثم يسخر من سياسته الخرقاء، وإهماله لجوانب الإصلاح فى البلاد[1]:.

قالوا: جلبت لنا الرفاهة والغنى ... جحدوا الإله وصنعه والنيلا

فى كل تقرير تقول : خلقتكم ... أفهل ترى تقريرك التنزيلا؟!

هل من نداك على المدارس أنها ... تذر العلوم،وتأخذ الفوتبولا؟ [2]

أم من صيانتك القضاء بمصر أن ... تأتى بقاضى دنشواى وكيلا؟ [3]

إنا تمنينا على الله المنى ... والله كان بنيلهن كفيلا

من سب دين محمد ، محمد ... متمكن عند الإله رسولا[4]

كان "اللورد كرومر" فى كل عام يضع تقريرا مفصلا عن الحالة العامة فى مصر والسودان ، وكان فى كل تقرير يدعى لنفسه من وجوه الإصلاح والاهتمام فى مصر ما يكذبه الواقع[5] .

وقد تصدى له أمير الشعراء هنا، مكذبا ادعاءه، وساخرا من سياسته الخرقاء التى كانت وبالا على أبناء الوطن، فقد تلاعب فى نظام التعليم، وأفسده وصعب قوانينه بما صرف الناس عنه إلى اللعب والاستهتار، فكان صنيعه هذا عاملا قويا من عوامل انتشار الجهل والخرافة فى البلاد.

١- الشوقيات، المجلد الأول، الجزء الأول/١٧٤، ١٧٦ .

٢- الفوتبول: كلمة إنجليزية، ومعناها : كرة القدم.

٣- قاضى دنشواى:هو أحمد فتحى زغلول باشا، وقد عينه كرومر بعد ذلك وكيلا لوزارة الحقانية مكافأة له

٤- الأبيات من بحر الكامل التام (عروضه صحيحه، وضرب مقطوع).

٥- راجع: ٥ أيام هزت مصر، محسن محمد/٩ .

ويسخر شوقى منه كذلك، حين كافأ قاضى محكمة دنشواى (أحمد فتحى زغلول باشا) حين حكم على المصريين بالشنق والجلد والسجن، فجعله وكيلا لوزارة الحقانية (وزارة العدل) بعد أن كان رئيسا لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية، فكان "كرومر" بذلك مشجعا على اتباع سياسة الظلم والقهر والجبروت فى البلاد.

وتكمن السخرية هنا: فى أن شوقى استطاع – بشجاعته – أن يخلع عن "كرومر" قناع الزيف الذى يخدع به الشعب، وأن يكشف عن حقيقته الغامضة، وعن سياسته الخرقاء التى أصبحت مصر – خلالها – محتلة عسكريا...ومدنيا.

وقد سلك "شوقي" فى سخريته هنا أسلوبا مباشرا، معتمدا فيه على صيغة الاستفهام التعجبي، وهذا الأسلوب أقرب إلى روح الانفعال التى تسيطر على شوقى هنا.

ولقد كان من مظاهر إهمال المحتل لجوانب الإصلاح وتطوير الحياة السياسية فى البلاد: محاولة فرض الحماية البريطانية على مصر، من خلال ماعرف بمشروع "ملنر" حيث "لجأت الحكومة البريطانية لسياسة الملاينة أمام إصرار المصرين على الاستقلال فأرسلت إلى مصر لجنة خاصة برئاسة "اللورد ملنر" وزير المستعمرات البريطانية ، ولكن المصريين جميعا قاطعوها، وقامت المظاهرات احتجاجا على قدومها، حتى يعرف الإنجليز أن الأمة لا تقبل استقلالا مشوبا بأية وصاية أو سيادة أجنبية أو أى قيد، واضطرت الحكومة البريطانية إلى دعوة الوفد المصرى برئاسة "سعد زغلول" للسفر إلى لندن للمفاوضة، وبعد المباحثات توصل المتفاوضون إلى مشروع معاهدة قرر الوفد عرضه على الشعب ليعلن فيه رأيه ، ولكن الموضوع وجد من جميع الهيئات والطوائف معارضة وسخطا؛ إذ رأوا فى ظاهره الاستقلال وفى باطنه الحماية بكل خصائصها" [1].

*وهنا يتهكم "شوقي" بهذا المشروع الذى عده المصريون قيدا جديدا من قيود الأسر، وإبعادا لهم عن الحياة الحرة الكريمة، فيقول[2]:

١- تاريخ العرب الحديث والمعاصر، للدكتور/ أحمد عزت عبد الكريم وآخرين/١٢١

٢- الشوقيات، المجلد الأول، الجزء الأول/٧٤ .

"ليث والعالم من شرقه ... في هيبة الليث إلى غربه
قضى بأن نبني على نابه ... ملك بنينا وعلى خلبه
ونبلغ المجد على عينه ... وندخل العصر إلى جنبه
ونصل النازل في سلمه ... ونقطع الداخل في حربه
ونصرف النيل إلى رأيه ... يقسمه بالعدل في شربه
يبيح أو يحمي على قدرة ... حق القرى والناس في عذبه[1]

بالتأمل فى هذا النص، نجد "شوقي" يكشف عن نوايا بريطانيا الخبيثة فهى بمشروعاتها تريد من مصر أن تكون مملكة مستقلة استقلالا اسميا، بينما هى فى الحقيقة ولاية تابعة لبريطانيا ، تصل من الدول من تصله بريطانيا، وتعادى من تعاديه وتتحكم فى ماء النيل حسب هواها وأطماعها، فمصر مملكة قائمة على أنياب بريطانيا ومخالبها.وتتجسد السخرية فى البيت الثانى من خلال هذه المفارقة الغريبة، التى ترسم للمصريين صورة مضحكة، وهم يحاولون بناء مجد بلادهم على ناب ليث هصور، لا يلبث أن يلتهمهم، فلا يبقى منهم ولا يذر.

كما تكمن السخرية فى هذه الصورة المزرية التى تظهر الشعب المصرى فى صورة ألعوبة فى يد بريطانيا، يصل من تصله، ويقاطع من تقاطعه، وبذلك تنهار فى نفوس أبناء الوطن كل معانى العزة والكرامة والمطالبة بالاستقلالية، وتخيم عليهم المذلة والهزيمة والانكسار.

*ويقول الشاعر "أحمد الكاشف" ساخرا من سياسة الخداع والمراوغة التى تسلكها بريطانيا من أجل فرض حمايتها على مصر، واغتيال أمانى أبناء الوطن[2]:

تخاطبنا أفواهكم وبراتكم ... وتقذف نارا جندكم وحديدا

١- الأبيات من بحر السريع التام (عروضه مطوية مكسوفة وضربها كذلك).
٢- ديوان الكشاف/٢٧٥ وما بعدها.

وربّ خطيـــب مـــنكم فـــوق منـــبر يـــثير بروقـــا فوقـــنا ورعـــودا
تريـــدون تأمينـــا علـــى مـــا قـــضيتم وتبغـــون منـــا ركعـــا وسجـــودا
ومـــا كـــان مـــا سميتمـــوه حمايـــة ســـوى الـــرق مـــرا والـــسلاسل ســـودا
تقولـــون حاربنـــا لحريـــة الـــورى وترجـــون أن يبقـــى الأبـــاة عبيـــدا
ومـــا خـــاف منـــا أعـــزل بطـــش جنـــدكم كمـــا خـــاف أيمانـــا لكـــم وعهـــودا[1]

فالكاشف – هنا – ساخر وثائر على الأوضاع السياسية الفاسدة، وعلى سياسة الخداع والمراوغة والملاينة التى تسلكها بريطانيا لفرض سلطانها على البلاد وأهلها.

وتكمن السخرية من هذه الأوضاع فى بيته الأول: الذى يشير فيه إلى مطلق التناقض والمخالفة بين القول والفعل فى عرف هذا العدو الدخيل، فلسانه ينطق بمعسول الكلام، وجميل الأماني، وفعله يهدف إلى إشعال نيران الفتنة ، وإلقاء أشباح الموت والخطر بين أبناء الوطن الأبرياء.

وفى البيت الثالث تتجسد السخرية فى نقل الشاعر لألفاظ العبادة الواردة فيه واستعمالها فى مقام بعيد الصلة عن مقامها الأصلي، وقد ساعده على ذلك اللغة والموقف.

كذلك يسخر الشاعر من هذا العدو فى بيته الرابع: حين يرسم له صورة مقززة – تبعث الانقباض فى النفس – لهذه الحماية التى يريد العدو فرضها على مصر، فيصورها الشاعر فى صورة "الرق" المر الذى يحاول ربط أبناء الوطن بقيوده وسلاسله الموجعة.

ومكمن السخرية – هنا –: هو أن هذا العدو يقصد الإفساد فى صورة الإصلاح (رق واستعباد فى صورة حماية)، والنص مملوء بهذا المعنى الذى يعد لونا من ألوان التناقض، والذى يعد – بدوره – سببا قويا من أسباب السخرية هنا.

١- الأبيات من بحر الطويل.

وهكذا نرى فداحة الظلم الذى تعرضت له مصر أيام ضغط الاحتلال الأجنبى على قلبها، والذى جر عليها المحن والكوارث والويلات، وأذاقها من عنفه وعسفه ما تنوء بحمله الجبال، وحاول أن يضرب على البلاد وعلى أهلها حصارا من المذلة والصغار والجهل والعماية.. ولكن رياح الحركة الوطنية لم تكن لتخمد للأبد، فقد ظهرت – فى بداية الأمر – فى صورة ضعيفة، ثم تحولت إلى ثورة عارمة غاضبة طهرت البلاد والأعراض من دنس المحتل الواغل.

ب. السخرية من ضعاف النفوس من المصريين المتواطئين مع المحتل :

لم تتوقف حملة الشعراء المصريين على القادة والزعماء الأجانب الذين أذاقوا البلاد غصص الألم والمرار فقط، بل امتدت إلى كل العاقين من أبناء الوطن والموالين للمحتل الدخيل، لأنهم بهذا الصنيع سهلوا للعدو المحتل التوغل فى شئون البلاد، وإحكام قبضته عليها، فكانوا بذلك بلاء ونقمة على بلادهم.

* وتبدو خطا أمير الشعراء "أحمد شوقي" واضحة فى هذا الجانب، حين يسخر من "مصطفى رياض باشا" بعد خطبته فى افتتاح مدرسة "محمد على" الصناعية فى ٨ يونية ١٩٠٤م، وفيها تملق "اللورد كرومر" الذى كان حاضرا، مما دفع شوقى إلى أن يشهر فى وجهه سلاح السخرية والتهكم حين يقول له[١]:

غمـــرت القـــوم إطـــراء وحمـــدا ... وهـــم غمـــروك بالنعـــم الجـــسام
رأوا بـــالأمس أنفـــك فـــى الثريـــا ... فكيـــف اليـــوم أصـــبح فـــى الرغـــام
أمـــا والله مـــا علمـــوك إلا ... صـــغيرا فـــى ولائـــك والخـــصام
إذا مـــا لم تكـــن للقـــول أهـــلا ... فمـــا لـــك فـــى المواقـــف والكـــلام؟
خطبت،فكنـــت خطبـــا لا خطيبـــا ... أضـــيف إلى مـــصائبنا العظـــام
لهجـــت بـــالاحتلال ومـــا أتـــاه ... وجرحـك منـه -لـو أحسـست- دامـي[٢]

١- الشوقيات، المجلد الأول، الجزء الأول/٢٠٩ .
٢- لهجت بالاحتلال: من قولهم: لهج بالشئ ، إذا أغرى به ودافع عنه.

ومـــا أغنـــاه عمـــن قـــال فيـــه ومـــا أغـــناك عـــن هـــذا الترَمـــي[1]

فى هذا النص تظهر غيرة "شوقي" الوطنية على وطنه، حيث يندفع ساخرا من كل من يهون من شأنه، أو يبنى للغير طوبة فوق أرضه.

وهو هنا يسخر ويتهكم من "رياض باشا" الذى أثنى على الاحتلال، وسياسته فى طول البلاد وعرضها.

والنص كله – كما نرى – يتأجج بالسخرية ، ومن مظاهر هذه السخرية: أن شوقى – فى بيته الأول – جعل مبالغة هذا الخطيب فى الثناء على المحتلين، إنما كانت نتيجة لما غمره به من الأموال الطائلة والإحسان المتواصل، وفى هذا ما يسلبه شرف الوطنية ويجعله ذنبا من أذناب الاحتلال، وعميلا له فى البلاد، وفى ذلك من السخرية القاسية ما فيه.

كما تكمن السخرية فى – بيت شوقى الثالث – حين يصور أنف هذا الخطيب فى صورة متناقضة، فهو بالأمس فى قمة مجده وسلطانه، بينما هو اليوم – وبعد ما لهج به لصالح المحتل – مغمور فى الترَب ، وكأن النتيجة المترتبة على خيانة الإنسان لوطنه: هى أن يرغم أنفه فى الترَب.

وفى البيت الرابع والخامس: يسخر شوقى منه سخرية مؤلمة، حين يقول له: إذا لم تكن قادرا على إحسان الكلام، والوقوف به عند حده، فلماذا تقحم نفسك فى أمر لست أهلا له؟! فلقد عاد علينا طيشك وتهورك فى الكلام بالمصائب الجسام!!

والسخرية هنا: تدل على ما ترتب على كلام هذا الخطيب من آلام نفسية أصابت الأمة المصرية، وبرحت بها.

ويبلغ شوقى مداه فى سخريته وتهكمه حين يواصل كلامه مخاطبا "رياض باشا":

جنيـــت علـــى قلـــوب الجمـــع يأســـا كأنـــك بيـــنهم داعـــى الحمـــام

١- الأبيات من بحر الوافر التام (عروضه وضرب مقطوفان).

أراعـــك مقتـــل مـــن مـــصر بـــاق فقمـــت تزيـــد سمهـــا فـــى الـــسهام
وهـــل تركـــت لـــك الـــسبعون عقـــلا لعرفـــان الحـــلال مـــن الحـــرام

يقول له: إنك ارتكبت جريمة نكراء بكلامك هذا، فقد أشعت اليأس فى قلوب أبناء الوطن من الذين استمعوا إليك، ولولا أنهم يحبون بلادهم حبا يمنعهم من القعود عن العمل لإنقاذها من الاحتلال لأقعدهم اليأس والقنوط بسبب كلامك الذى يشبه الموت.

ويسخر "شوقي" منه فى بيته الأخير، فيجرده من العقل بسبب تقدم السن به، مما جعله لا يميز بين الحلال والحرام !!

وهى سخرية مؤلمة وموجعة، توحى بخفة العقل، وافتقاد الصواب فى الرأى.

- كما يسخر "حافظ إبراهيم" من بعض المصريين الخونة المتواطئين مع العدو ضد بلادهم، حين يقول من قصيدته "حادثة دنشواى ١٩٠٦م "[١]:

أيهـــا المـــدعى العمـــومى مهـــلا بعـــض هـــذا فقـــد بلغـــت المـــرادا
قـــد ضـــمنا لـــك القـــضاء بمـــصر وضـــمنا لنجـــاك إلا سعـــادا
فـإذا مـا جلست للحكم فاذكرعهد مصر فقـــــد شـــــفيت الفـــــؤادا
أنـــت أنبـــت ذاك النبـــت يـــا مـــصر فأضـــحى عليـــك شـــوكا قتـــادا[٢]
أنـــت أنبـــت ناعقـــا قـــام بالأمـــس فـــأدمى القلـــوب والأكبـــادا
إيـه يـا مـدرة القـضاء ويـا مـن ساد فـــى غفلـــة الزمـــان وشـــادا[٣]
أنـــت جلادنـــا فـــلا تنـــس أنـــا قـــد لبـــسنا علـــى يـــديك الحـــدادا[٤]

١- ديوان حافظ إبراهيم/٣٣٥، ٣٣٦ .
٢- القتاد: شجر صلب له شوكه كالإبر .
٣- المدرة: خطيب القوم ، والمتكلم عنهم.
٤- الأبيات من بحر الخفيف التام.

يسخر "حافظ" فى هذه الأبيات من المدعى العمومى فى المحكمة المخصوصة التى عقدت، لمحاكمة أهل قرية دنشواى ، وهو إبراهيم الهلباوى المحامى المعروف، حيث وعده الإنجليز بأن يكون من رجال القضاء لدفاعه بحماس عنهم فى هذه الحادثة.

وتكمن السخرية فى خطاب "حافظ" له: بأنه – بما قام به من الدفاع عن الإنجليز المحتلين – قد فاز بحظوتهم ، وبلغ ما يريده من مجد وشهرة، حيث أصبح توليه القضاء فى مصر مضمونا، وأصبحت السعادة محفوظة لنجله مدى الأيام.

وهذه سخرية لاذعة، تدل على حب هذا الإنسان لفن التسلق من أجل الوصول إلى مآربه ومصالحه الشخصية، حتى ولو كان ذلك على حساب وطنه وعلى حساب كرامته.

كما تكمن سخرية "حافظ" من الهلباوى بك أيضا: فى أن مصر قد أحسنت إليه باعتباره واحدا من أبنائها، فإذا به يكفر بهذا الإحسان، ويتحول إلى شوك مؤذ، وهو ما يجسد روح المفارقة التى تبدو فى ترتب الإساءة على الإحسان.

ويسخر منه "حافظ" فى بيته الأخير حين يجعله "جلادا" لأبناء الوطن بما توحى به هذه الكلمة من معان غير محببة إلى النفس.

والسخرية هنا تجسد لونا من المفارقة الغريبة، حين تحسن مصر إلى أبنائها، ثم يكون الغدر شيمة بعضهم ، فيجزونها بالإحسان إساءة.

والسخرية فى هذا النص عموما تدل دلالة بينه على نكبة مصر بأبنائها الذين أصبحوا حربا عليها لا على المستعمرين.

*ويقول الشاعر "أحمد الزين"[1] ساخرا من بعض الوزراء المصريين الذين شغلوا بأنفسهم، ضاربين بمصالح الشعب عرض الحائط[1]:

١- ولد الشاعر أحمد الزين بقرية "ميت نابت"، مركز السنطة، بمحافظة الغربية عام ١٨٩٨م، تلقى تعليمه فى الأزهر الشريف، حتى حصل على الشهادة العالمية منه عام ١٩٢٤م، وكان كفيفا، وقد عين مصححا بدار الكتب المصرية

يستوزرون وكل عدتهم لها ... أذن الأصم ومقلة العشواء
وإذا تضرعت البلاد إليهمو ... فالصبر كل نصيحة النصحاء
يصفون أدواء البلاد وعندهم ... أن السكينة بلسم الأدواء
فكأنما لفظ السكينة آية ... ما أنزلت إلا على الوزراء[٢]

يسخر الشاعر "أحمد الزين" – فى هذه الأبيات- من بعض أبناء مصر من الوزراء الذين أحسنت إليهم البلاد، وبرت بهم، ودفعت بهم إلى المناصب المهمة وبدلا من أن يردوا هذا الجميل إلى أوطانهم، راحوا يتمرغون فى النعيم، ضاربين بأمانى الشعوب ومطالبها عرض الحائط، فلهم آذان لا يسمعون بها إلا ما يعود عليهم بالمجد المادي، ولهم أعين لا يبصرون بها إلا الجرى وراء شهواتهم ومطامعهم.

وتكمن السخرية هنا: فى وصف الشاعر لهؤلاء الوزراء بأنهم أعدوا العدة لمناصبهم الجديدة، وأخذوا يتسلحون لها، ولكن .. بأذن لا تسمع الشكوى، وعين لا ترى المظالم والآلام التى تغشى أبناء الوطن.

وهى مفارقة غريبة، ترسم صورة للتناقض المزرى الذى يدفع إلى السخرية والتهكم.

كما تكمن سخرية الشاعر – أيضا – من هؤلاء الوزراء العاقين لأوطانهم ، الخائنين لبلادهم: فى أن غاية ما يخدمون به بلادهم عند نزول المحن والبلاء بها، هو النصيحة بالتزام جانب الصبر والسكينة، وكأن لفظ "السكينة" آية من كتاب الله لم تتنزل إلا على وزراء مصر الخائنين لأوطانهم.

المصرية لفضله وعلمه، وظل بها حتى مات سنة ١٩٣٨م، وله ديوان شعر مطبوع. (ينظر فى الترجمة: الأعلام، الزركلي، ج١/١٢٩).

١- ديوان أحمد الزين ، جمع الأستاذ/عبد المغنى المنشاوى/١٦، الطبعة الأولى- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م

٢- الأبيات من بحر الكامل التام (عروضه صحيحة وضرب مقطوع)

وهى سخرية تكشف عن واقع مر مؤلم، حين يتخلى حماة الشعب عن مواقعهم ويتركون الميدان خاليا لوثبات كل ثعلب دخيل.

*وعلى نفس هذا الوتر، يضرب الشاعر "على الغاياتي" حين يقول ساخرا من وزارة بطرس غالى[1] :.

وزارة خداع أقامته بيننا ... يد الحاكمين الآثمين فقاما

وبين يديه عصبة بطرسية ... تصوب نحو المصلحين سهاما

جنى ما جنى فى دنشواى وغيرها ... ولم يكفه حتى استحل حراما

فقيد أقلام الصحافة علها ... إذا أبصرت سوءاته تتعامى

سلام على عهد الوزارة قبله ... وإن كان عهدا لا يبيح سلاما[2]

فى عام ١٩٠٨م عين "بطرس غالي" رئيسا لوزراء مصر عن طريق "جورست" المعتمد البريطانى لإنجلترَ فى مصر، وقد كان "الوطنيون يحتقرون "بطرس غالي"؛ لأنه مخلص للخديو والإنجليز، ثم إنهم لم يغفروا له أبدا توقيع اتفاقية السودان سنة ١٨٩٩م [3] ورئاسته لمحكمة دنشواى المخصوصة ١٩٠٦م" [4].

وتكمن سخرية "الغاياتي" فى بيته الأول، حين يصف وزارة "بطرس غالي" بأنها وزارة خداع، وإضافة لفظ "وزارة" إلى لفظ "خداع" فيه مزيد من السخرية منه وحين تكون أيدى الأجانب هى التى ساعدته للوصول إلى الوزارة، تكون السخرية منه أشد وأعمق وأقوى أثرا.

١- عين بطرس غالى رئيسا لوزراء مصر فى ١٢ نوفمبر ١٩٠٨م انظر: ديوان وطنيتي/٦٤ .

٢- الأبيات من بحر الطويل.

٣- فى هذه الاتفاقية أملت الحكومة الإنجليزية على الحكومة المصرية عدة قرارات وهي: أن تكون إدارة السودان مشتركة بين مصر وإنجلترا، وأن يعين الحاكم العام للسودان بعد موافقة إنجلترا، وإلا يسرى فى السودان نظام الامتيازات أو المحاكم المختلطة، وهكذا قاسمت إنجلترا مصر فى كل ما بقى من السودان دون أن تتحمل من أجل ذلك غرما يذكر.

٤- ٥ أيام هزت مصر ، محسن محمد/٤٥ .

ثم يحاول الشاعر تعليل سخريته منه، فيذكر أنه جنى على المصريين فى دنشواى وأنه قيد الصحافة، وفرض الصمت على الأفواه، وقسا على رواد الإصلاح فى البلاد.

وقد كانت كل هذه المساوئ داعية إلى السخرية منه ومن سياسته، والتندر عليه وعلى وزرته.

*وأخيرا نجد قول الشاعر "فخرى أبو السعود" الذى يسخر فيه من هؤلاء اللصوص المجرمين.. يقول[1] :.

ـن كان قاع السجن مأوى مثلهم ... عمرت محافل باسمهم ومنابر

أجروا على الأهلين ما لم يجر ... فى سالف الأحقاب غاز فاجر

وتحكموا والأجنبى مظاهر ... لهم وجند الأجنبى مناصر

أو هى وأوهن ما رأوا شرائع ... عبثوا علانية بها ودساتر[2]

يسخر الشاعر- هنا – من هذه الشراذم العاقة من أبناء مصر، الذين دفعتهم أوطانهم إلى العلا، بينما كان الأجدر بأمثالهم: قاع السجون؛ لأنهم امتطوا صهوة الشيطان وكادوا كيدا لبلادهم، وساموها الخسف بصورة لم تتحقق من قبل على يد غاز فاجر مستبد على تلاحق القرون.

وتظهر سخرية الشاعر من هؤلاء الخونة فى تركيزه على الصورة الإيجابية فهو يعمد إلى ذكر صفات معينة عند هؤلاء، فيصورها ويجسمها بصورة يغلب عليها الجانب التقريري: فهؤلاء الذين أحسنت إليهم بلادهم.. أجروا عليها من المظالم ما لم يجر عليها غاز مستبد !! وهؤلاء الذين برت بهم مصر، وتسامحت معهم.. تحكموا فيها، واستبدوا بأهلها يعاونهم على ذلك جند المحتل الدخيل!!

١- ديوان فخرى أبو السعود/١٥١ .

٢- الأبيات من بحر الكامل التام.

وبهذه الصورة التقريرية الإيجابية ، تظهر عيوب هؤلاء الخونة، فيصبحون محلا للسخرية والازدراء ؛ لأنهم أنكروا الجميل، وكفروا العشير، وضلوا السبيل.

وهكذا ندرك قيمة الدور الإيجابى الذى قامت به السخرية الوطنية فى هذه المرحلة الحاسمة.

المرحلة الثانية: مرحلة ما بعد ثورة ١٩١٩م:

تبدأ هذه المرحلة من سنة ١٩٢٣م إلى سنة ١٩٥٢م، وهى تمثل فترة من فترات الاستقلال النسبى التى عاشها الشعب المصري، وقد حاولت الحكومة المصرية فى أثناء هذه المرحلة أن تجرب الحكم الدستورى فى البلاد ، وذلك عن طريق الوزارات التى توالت على عرش مصر، وزارة بعد أخرى.

فبعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢م اعترف الإنجليز لأول مرة بحق مصر فى الاستقلال، كما اعترفوا بحق المصريين فى الحكم الدستورى ، فقد صدر الدستور سنة ١٩٢٣م، وتولى سعد زغلول – زعيم الأمة – حكم البلاد.

ولكن هذا الدستور كان يعطى للملك سلطات واسعة استخرجها ليعصف بالحياة البرلمانية، بل إنه ألغى الدستور ، ومنح البلاد دستورا آخر سنة ١٩٣٠م وسع به سلطاته فكان يعهد بالحكم إلى وزارات من أحزاب الأقلية، واشتد النزاع بين الأحزاب، مما عطل الإصلاح، وشوه الحياة النيابية، وأخر المطالب الوطنية فى الحرية والاستقلال[1] وقد مثل الصراع بين الأحزاب السياسية فى مصر مظهرا واضحا من مظاهر الضعف والتأخر فى حياة المصريين السياسية؛ذلك لأن "الحزب أداة حكم دكتاتورية تمكن أصحاب الرؤية الواحدة أو المصلحة الواحدة من حكم الشعب بأكمله.. أى شعب.. والحزب هو الأقلية بالنسبة للشعب.

١- انظر: تاريخ العرب الحديث والمعاصر /١٢٢ .

إن الغرض من تكوين الحزب هو خلق أداة لحكم الشعب.. أى حكم الذين خارج الحزب بواسطة الحزب.. فالحزب يقوم أساسا على نظرية سلطوية تحكمية.. أى تحكم أصحاب الحزب فى غيرهم من أفراد الشعب.. يفترض أن وصوله للسلطة هو الوسيلة لتحقيق أهدافه، ويفترض أن أهدافه هى أهداف الشعب، وتلك نظرية دكتاتورية الحزب وهى نفس النظرية التى تقوم عليها أى دكتاتورية.

ومهما تعددت الأحزاب فالنظرية واحدة، بل يزيد تعددها من حدة الصراع على السلطة.. ويؤدى الصراع الحزبى إلى تحطيم أى إنجاز للشعب.. ويخرب أى مخطط لخدمة المجتمع .. لأن تحطيم الإنجازات ، وتخريب الخطط هو المبرر لمحاولة سحب البساط من تحت أرجل الحزب الحاكم ليحل محله المنافس له..وهكذا تكون مصالح المجتمع وبرامجه ضحية صراع الأحزاب على السلطة" [1].

ونحن عندما ننظر إلى مصر فى عهد الاحتلال، نجد أنها كانت "ممزقة تماما من الناحية الحزبية، فقبل رحيل "كرومر" بدأ قيام الأحزاب السياسية؛ نتيجة اختلاف المعتمد البريطانى والخديو،وبعد رحيل "كرومر" واتفاق الخديو و"جورست" زاد عدد الأحزاب.

وقد ساعد على ذلك ما أعلنه السيد "ادوارد جراى" فى مجلس العموم البريطانى من أن المصريين لا يملكون من الكفاءات ما يسمح بمنحهم الحكم الذاتى وتصريحات السيد "الدون جورست" فى القاهرة لجريدة المقطم من أن الشروط غير متوافرة لإعلان الدستور فى مصر بعد أحداث تركيا.

هذا، وقد وجد فى مصر – فى ذلك الوقت- عشرة أحزاب سياسية، متباينة الأهداف، ومتباعدة المقاصد .. تماما ..

١- الكتاب الأخضر، بقلم/معمر القذافي/١٩-٢٢، الطبعة الأولى بمصر يناير سنة ١٩٩٠م ، الناشر: المركز العالمى لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر- طرابلس – الجماهيرية.

- **فالحزب الوطني**: الذى أنشأه مصطفى كامل يطالب بالدستور والاستقلال الداخلي.
- **وحزب الإصلاح** على المبادئ الدستورية الذى أنشأه الشيخ على يوسف يؤيد سياسة الوفاق بين عباس وجورست، ويرى الاعتماد على وعود بريطانيا بالجلاء.
- **وحزب الأمة**: ورئيسه "محمود سليمان باشا" ويطالب بالتدرج لإيجاد مجلس النواب والاشتراك مع الحكومة فى وضع القوانين، وهو حزب للأعيان وأصحاب المصالح الحقيقية فى مصر – كما سماه أعضاؤه – وينتمى لهذا الحزب نصف أعضاء مجلس الشورى.
- **وحزب الأحرار**: ويرأسه محمد وحيد بك، ويدعو إلى مسالمة المحتلين ونيل ثقتهم.
- **والحزب الدستورى**: برئاسة إدريس راغب بك، وهو يؤيد الجميع: الخديو والاحتلال وتركيا أيضا، ويرى أنه لابد من انقضاء عشرين سنة حتى تحصل مصر على الدستور!.
- **وحزب النبلاء**: برئاسة حسن حلمى زاده ، وهو يدافع عن العنصر التركي أو المصريين الذين ينتمون إلى أصول تركية، ويؤيد الأتراك والخديو، والإنجليز.
- **وحزب مصر المستقلة** : وهو يدافع عن مصالح الأقباط وحدهم برئاسة أخنوخ فانوس.
- **والحزب الجمهوري**: ويطالب رئيسه محمد غانم بالدستور والاستقلال، ويدعو للجمهورية ، ويهاجم أسرة محمد على.
- **والحزب الاشتراكي**:الذى يرأسه الدكتور حسن جمال الدين لتحسين أحوال الفلاحين.
- **وأخيرا حزب العمال** : بالقطر المصرى والسودان.

وكانت هذه الأحزاب تتبادل الاتهامات .. ومن الصعب أن تتفق على هدف واحد وكان من الطبيعى أن يكون لكل حزب من هذه الأحزاب صحيفته التى تنطق

بلسانه، ولذلك وجد فى مصر فى ذلك الوقت خمس وعشرين صحيفة يومية منها ثلاث عشرة باللغة العربية، واثنتا عشرة باللغة الأجنبية" [1].

وأمام هذا التعدد الحزبى ، كثرت النزاعات والخلافات ، وأطل الظلم والتعسف برأسه على الحياة السياسية، مما ألهب مشاعر الأدباء إلى الوقوف فى وجه كل مظاهره وأشكاله،باعتبار أن ذلك يعد لونا من ألوان النقص فى حياتنا.

وإليك – الآن – تفصيلا لأهم موضوعات السخرية السياسية أو محاورها فى هذه المرحلة:

١. السخرية من استبداد الحكام والقادة:

أنصف الشعراء المصريون فى القرن العشرين، عندما لم يقصروا سخريتهم وتهكمهم على الإنجليز المحتلين للبلاد وحدهم، بل إنهم أحسنوا صنعا عندما حملوا على المصريين أيضا؛ لأنهم قاعدون عن نصرة بلادهم ، واستعادة حرياتهم، مما أوقع أوطانهم تحت وطأة المحتل، وأورثهم الضعف والتأخر فى شتى المجالات،وأغرى بهم الحكام يسومونهم الخسف، ويجشمونهم الأهوال والمهالك.

والثورة على الظلم والاستبداد ظاهرة طبيعية لشعب يريد الحياة، وكثير من الحكام والقادة يقعون فى خطأ جسيم حينما يتخيلون "أن سطوتهم وسياط عذابهم، ورهبة سجونهم، وغيرها من صنوف النكال كفيلة بأن تجنبهم جراحات الألسنة ووخزات النوادر ولهب الأنفاس المكبوتة، ذلك بأن الناس إذ يشعرون بالضغط النازل عليهم، ويجدون أنفسهم فى ضيق وفى تضييق، يؤثرون المواءمة فى الظاهر،أو كثيرا ما يؤثرونها، لكنهم لابد أن يتنفسوا" [2].

وتبدو ملامح هذا التنفيس فى صورة السخرية أو التهكم أو التندر، أو غير ذلك من الصور التى لها وقعها على نفوس الحكام والملوك.

وقد شاءت الأقدار أن يحكم الشعب المصرى "منذ الفتح الإسلامى إلى منتصف القرن العشرين بأفراد أو أسرات لا تشترك معه فى الأصل ، وربما خالفته فى الجنس، وهى

١- انظر:٥ أيام هزت مصر، محسن محمد/١٢٣، ١٢٤، ١٢٥ بتصرف.
٢- الفكاهة فى الأدب، د. أحمد الحوفي، ج٢/٥٥ .

إلى غريزتها وفضولها تعتمد – فى الغالب – على البطش والجور والاستئثار بخيرات الوطن فكان لابد للشعب أن يتهكم ويتندر بهؤلاء الحكام وبأعوانهم من أجانب ومصريين" [1].

وقد وقف الشعراء المصريون بالمرصاد لكل حاكم أو قائد أو مستبد، خلال التاريخ الطويل ، ولاسيما فى القرن العشرين ، الذى اكتوى الناس فيه بنيران الظلم وألهبت ظهورهم تحت وطأة القهر والجبروت.

*يقول الشاعر "محمود غنيم" [2] ساخرا من ظلم الملك فاروق واستبداده بأبناء الوطن[3] :

الأمر ما شاء أو شاءت بطانته ... وليس للشعب غير الهم والكمد

العيب فى ذاته كفر، وكل دم ... أراقه فهو مطلول بلا قود

هيهات تسمع أذن أو يرى بصر ... إيماء معترض أو همس منتقد!

الكل يثنى على آلائه كذبا ... وينشئ المدح فيه غير معتقد[4]

فالشاعر هنا، يرسم صورة من صورة الاستبداد والقهر السياسى التى كان الشعب المصرى يعانى منها أيام حكم الملك فاروق، فقد كان يحكم البلاد حكما مطلقا، وليس للشعوب رأى أو مشورة، غير أنها تتحمل الهموم، وتعانى الكمد فى كل لحظة، وهيهات أن تسمع أذن همس المظلومين، أو ترى عين إيماء المعترضين فى ظل سياسة الكل يسبح فيها بحمد الحاكم- رضى أم أبى – آناء الليل وأطراف النهار.

والسخرية تطل برأسها من أطراف هذا النص – كما يبدو -، ويظهر ذلك فى البيت الثاني: الذى يجعل مجرد العيب فى شخص الملك نوعا من أنواع الكفر بينما

١- الفكاهة فى الأدب، ج١٠١/٢ ، بتصرف يسير.

٢- ولد الشاعر محمود غنيم عام ١٩٠٢م فى "مليج" بمحافظة المنوفية، وتلقى علومه الأولى فى المعاهد الأزهرية فى شبين الكوم وطنطا، ثم انتقل إلى القاهرة للدراسة فى مدرسة القضاء الشرعي، وكلية دار العلوم حتى حصل على درجة الدبلوم عام ١٩٢٩م، وتدرج فى وظائف التدريس حتى وصل إلى درجة التفتيش، ثم انتقل إلى القاهرة عام ١٩٤٣م ، وله شعر كثير مجموع فى دواوينه، توفى عام ١٩٥٩م (ينظر: مقدمة الأعمال الكاملة للشاعر، ج٤/١ وما بعدها ، دار الغد العربى ١٩٩٣).

٣- الأعمال الكاملة /٣٢٩ .

٤- الأبيات من بحر البسيط التام.

تذهب كل الدماء التى يريقها هذا الملك بظلمه وعسفه أدراج الرياح، لا يرثى لها أحد، ونقل لفظ الكفر من معناه الأصلى إلى هذا المقام، فيه تجسيد واضح للسخرية.

كما تظهر السخرية فى البيت الثالث: الذى تبدو فيه سياسة الطغيان فى قمة ظلمها وجبروتها، وهى مع ذلك تحرم على الناس مجرد الشكوى أو التوجع مما هم فيه من ظلم وعسف.

وفى البيت الرابع: تبدو السخرية من هذه السياسية الاستبدادية التى أجبرت الناس على بذل الحمد والثناء على ذات الملك، وإن لم يكن فيه شئ من ذلك.

والسخرية فى هذا النص: تدل دلالة بينة على مدى الإذلال والقهر الذى عانى منه الشعب المصرى فى هذه المرحلة على أيدى حكامه المستبدين.

*ويقول الشاعر "هاشم الرفاعى" ساخرا من سياسة الحكم المطلق أيام الملك فاروق[1]:

هـــذا ابـــن نـــازلى للـــهلاك يقودنـــا ... جهـــرا ويلقـــى فـــى الـــبلاد مطـــيعا[2]

ونـــراه وفـــق هـــواه يرســـل نظـــرة ... فتعطـــــل التنفيـــــذ والتـــــشريعا

وإذا أشـــــار أتـــــت إليـــــه وزيرة ... تجـــرى لتوســـع أختهـــا تـــشنيعا

فـــإلى متـــى هـــذا الخنـــوع وإنـــه ... جـــرم أضـــاع حقـــوق مـــصر جميعـــا[3]

فالشاعر "هاشم الرفاعي" يكشف – هنا – عن سبب قوى من أسباب تردى السياسة وفسادها فى عهد فاروق ، وهو أتباعه سياسة "الحكم بالهوى"، فإذا كان الأمر يعود عليه بالمصلحة الشخصية أمضاه، وإلا فهو معطل إلى غير أجل، وهذا نوع من الأنانية المدمرة، وحب الذات، والنرجسية البغيضة.

١- ديوان هاشم الرفاعي/٢٠٦ .
٢- ابن نازلى : الملك فاروق.
٣- الأبيات من بحر الكامل التام.

كما يبدو هذا الفساد فى رضا الملك عما كان بين أبناء الشعب من خلافات ونزعات؛ لأنها فى النهاية تضمن له السيطرة ، وكسب حزب ضد آخر، وهى سياسة دخيلة على البلاد، وأساسها القمع والشدة.

* يقول الشاعر "محمد الماحي"[1] ساخرا من سياسة القمع والشدة والإرهاب التى كانت وسيلة لإسكات الناس فى عهد فاروق[2]:

ذاك عهد ساعاته أيام ... ذاك عهد أيامه أعوام

أنصف الدهر حين داول منه ... ما لعسف وإن تمادى دوام

ـ كان همس النصيح يعتد جرما ... وكلام الغوى نعم الكلام

ساد فيه حكم الرذيلة حتى ... يئس المصلحون منه فناموا[3]

فالشاعر – هنا – يسخر من ثقل هذا العهد، ويصف ساعاته بأنها أيام، كما يصف أيامه بأنها أعوام، ولذا لم يبق عليه الدهر؛ لأنه ليس لمعتسف بقاء، سنة الله فى خلقه.

وتظهر سخرية الشاعر فى البيت الثالث:

كان همس النصيح يعتد جرما ... وكلام الغوى نعم الكلام

الذى يكشف فيه عن جانب من جوانب الفساد السياسى فى ذلك العهد فقد انقلبت فيه المقاييس ، وارتكست القيم، وقدم الطالح على الصالح، وكثرت الخيانات.

وهذه سخرية لاذعة ،تبرز مدى الظلم والتخبط الذى عانت منه هذه الفترة الزمنية.

*يقول الشاعر "صالح الشرنوبي" ساخرا من خيانة بعض الحكام المصريين لأوطانهم[4] :

١- ولد محمد مصطفى الماحى فى مدينة دمياط، وذلك فى عام١٨٩٥م، وتلقى العلم فى مدارسها، ثم عين مراقبا عاما بوزارة الأوقاف، وله ديوان شعرى صدر عام ١٩٣٤م، وهو يمثل أدب نفسه التى اتخذت الاعتدال مذهبا لها فى كل شئ . (ينظر: حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، العدد الثالث/١٥٧ وما بعدها.

٢- ديوان الماحي/،٧٣، ٧٤ .

٣- الأبيات من بحر الخفيف التام.

٤- ديوان صالح الشرنوبي/٣٠٦ .

حتـــى غـــدوا حربـــا علينـــا (م) لا علـــــــى المـــــــستعمرين
والـــشعب يرقـــب والحـــوا (م) دث كالحجـــــــارة لا تلـــــــين
والحـــــــاكمون بأمرهـــــــم يـــــا ذلهـــم فـــى الحـــاكمين
شـــــابت نواصـــــيهم ومـــــا ســـــئموا حيـــــاة اللاعـــــبين
يتفاوضـــــون علـــــى الجـــــلاء ويحـــــدة الـــــوادى الأمـــــين
فاعجـــب لمقـــتول يفـــا (م) وض فىالمـــــــصير القـــــــاتلين[1]

والسخرية هنا، تتأتى من زاوية أن الحكام لا تشغلهم قضية البلاد بقدر ما تشغل تفكيرهم مسألة جمع الأموال وتكديسها، وبذلك انقلبوا حربا على بلادهم وعلى أهليهم، فهم والمستعمر المحتل فى الاعتداء على الوطن سواء، ولذا لم يعرهم المحتل أى اهتمام ، ولم يحسب لهم حسابا؛ لأنهم – فى عينه – مثال للضآلة والحقارة التى لا تمثل أى قيمة أو خطر فى الحياة.

* ويقول "هاشم الرفاعي" ساخرا من بعض مظاهر الظلم والاستبداد التى تفشت عند حكام مصر فى بعض العهود[2] :

أنـــزل بهـــذا الـــشعب كـــل هـــوان وأعـــد عهـــود الـــرق للأذهـــان
اقتـــل بـــه مـــا اســـطعت أى كرامـــة وافـــرض عليـــه شـــريعة القرصـــان
أطلـــق زبانيـــة الجحـــيم عليـــه مـــن بوليـــسك الحربـــى والأعـــوان
واصـنع بـه مـا شـئت غـير محاسـب فالقيـــد لم يخلـــق لغـــير جبـــان
يـــا باعـــث الـــوادي.. أمـــا مـــن جنـــة للمـــــتقين بجانـــــب النـــــيران
هـــدمت صـــرح فـــساده لكـــن علـــى حـــــــرية الأرواح والأبـــــــدان
مـــا بـــين محكمـــة تقـــام وأختهـــا منـــى الـــضمير بغفـــوة النعـــسان

١- الأبيات من مجزوء الكامل.
٢- جراح مصر، دراسة وتحقيق وتعليق: مجدى محمد الشهاوي/،٦٩ التاج للطبع والنشر والتوزيع.

الـــشعب يلعنهـــا ، وتقـــرن باســمـــه أرأيـــت كيـــف تـــبجح البهتـــان[1]

فيهـــا القـــضاة هـــم الخـــصوم وإنهـــا لعدالـــــة مختلـــــة المـــــيزان[2]

يعدد "هاشم الرفاعي" – فى هذا النص – صورا وألوانا من المحن ومظاهر الاستبداد التى حاقت بالشعب المصرى على أيدى بعض حكامه وقواده فى عام ١٩٥٥م أيام ما كان يسمى بمحكمة الشعب، والتى شكلت خصيصا لمحاكمة الإخوان المسلمين برئاسة قائد الجناح "جمال سالم" نائب رئيس مجلس الوزراء" "ولم تكن محاكمات تلك المحكمة التى سميت باسم الشعب إلا تمثيليات ومهازل مخزية، ففى الكثير من المحاكمات جئ بالمتهمين من الإخوان المسلمين، وقد ظهرت على أبدانهم ووجوههم آثار التعذيب الوحشي" [3].

فقد تفنن جمال سالم فى هذه المحكمة فى اختراع الطرق التى يستذل بها الإخوان المسلمين، ويتهكم بهم، ويسخر منهم أشد السخرية، والحق أن "اختيار جمال سالم لرئاسة محكمة الشعب من أسوأ الأخطار التى ارتكبها عبد الناصر فى حياته السياسية، فلا يوجد فى تاريخ القضاء العسكرى فى مصر رئيس محكمة هبط بمستوى المحاكمات إلى مثل ذلك الدرك الأسفل،ولم تسمع قاعات المحاكم فى مصر ما سمعته من العبارات النابية والتهجم على المتهمين والسخرية منهم وإرهابهم كما سمعت من جمال سالم، ولقد اتهم الإخوان المسلمون جمال سالم بأنه كان الخصم والحكم، وأطلقوا عبارة: "قضاتنا خصومنا" عليه" [4].ولهذا، فقد كان "جمال سالم" أبعد الناس صلاحية لأن يكون قاضيا يمسك بيده سيف العدل!!" [5].

وبالتأمل فى النص السابق، نجد أنه يفيض بروح السخرية والتهكم بسياسة القهر والاستبداد من كل جانب.

١- إشارة إلى تسميتها بمحكمة الشعب .
٢- الأبيات من بحر الكامل التام.
٣- جراح مصر/٦٣ .
٤- المصدر السابق نفسه، والصفحة.
٥- جراح مصر/٦٤ .

ففى البيت الثالث، يسخر الشاعر من رجال البوليس الحربى فى مصر ومن أعوانهم، ويصفهم بأنهم زبانية غلاظ شداد أتوا من الجحيم؛ وذلك لما اتصفت به أفعالهم من عنف وقسوة.

كما يسخر الشاعر فى بيته الخامس، من سياسة القهر والاستبداد التى منيت بها بعض الجماعات فى عهد الرئيس الراحل "جمال عبد الناصر"، حيث اكتوت بنيران الظلم والجبروت، مما جعلها تفقد الأمل فى انبعاث بارقة من أمل أو شعاع من نور.

كما تكمن السخرية فى بيت الشاعر الأخير فى قوله: فيها القضاة هم الخصوم... وهى تكشف النقاب عن فداحة الظلم، وشراسة السياسة التى خنس فيها صوت العدل وارتفع صوت القهر والاستبداد، مما كان سببا قويا للسخرية منها.

وقد ظهر الظلم والاستبداد – أيضا – على أيدى بعض كبار المسئولين من المصريين؛ تأثرا منهم بطبيعة المرحلة التى تتصف بالعنف.

يقول الشاعر "أحمد الكاشف" ساخرا من سياسة الاستبداد القائمة على الظلم التى اتصف بها بعض المسئولين ضد بلادهم[1]:

لايعـــرف الـــشيطان إلا صـــدره بيتـــا لـــه دون الهـــدى مـــسدودا
مـــا زال يغويـــه ويقـــسو قلبـــه حتـــى غـــدا حجـــرا أصـــم صـــلودا
وجفـــا فمـــا نجـــى غنـــاه معـــسرا يـــشكو إليـــه، ولا أغـــاث كميـــدا
يـصغى إلى الواشين محتفلا بما قالوا ويهـــــوى الـــــشاتم العربيـــــدا
متباهيـــا بـــالإثم معـــترفا بـــه يـــستعذب التأنيـــب والتفنيـــدا[2]

يسخر الشاعر – هنا – من "منشاوى باشا" ذلك الثرى المعروف، ويصفه بأنه مستبد وأنه يتصف بالركون إلى الهوى، ويعرف بالقسوة والجفوة وغياب جانب الإنسانية فى داخله والاستماع إلى الوشاة، وإبعاد الأفاضل وتقريب المعربدين والتفاخر بالإثم والفجور.

١- ديوان الكاشف/٩٢ .
٢- الأبيات من بحر الكامل التام.

وتكمن السخرية هنا: فى أن الشاعر جعل من صدره بيتا للشيطان ، وبنى ذلك على أسلوب القصر، الذى يفيد هذا المعنى ويؤكده، وهذا يعنى أن ملامح الخير قد انعدمت فيه، بحيث لم يبق فيه شئ سوى الشرور والآثام.

ويسخر منه الشاعر – كذلك – فى بيته الثالث: حين يصفه بالحفوة والفظاظة وأنه يغلق أبوابه دون أصحاب الحاجات والملهوفين، رغم أنه يملك وسائل إسعادهم والتخفيف عنهم ومواساتهم، وفى ذلك ما فيه من اللؤم وخبث الطوية.

وقد بلغ عنف بعض المسئولين المصريين – أحيانا- درجة تفوق عنف الأجنبى وقسوته.

*يقول "هاشم الرفاعي" ساخرا من ظاهرة استبداد بعض المسئولين المصريين فى بعض العهود ، من قصيدته "مصر بين احتلالين" [1]:

ما كان هذا الأجنبى ببالغ ... فى البطش مبلغ سالم وجمال[2]

يا نيل إن السيل قد بلغ الزبى ... وغدت بلادك دمية الأطفال[3]

لشعب مشدود الإسار مكمم ... يشكو القيود ومالـه من وال

ولقد ظننا أننا فى عهدهم ... سنزيح عنا مرهق الأثقال

حتى تكشف للبلاد خداعهم ... هيهات للظمآن رى الآل[4]

طعنوا جبابرة الكفاح وألصقوا ... عار الخئون بجبهة الأبطال

ورموا بخنجر كيدهم من قدموا ... زهر الشباب لمذبح الآمال

هم حطموا الأقلام ما تركوا لنا ... غير النفاق بغيثه الهطال[5]

١- ديوان جراح مصر/٥٤ .

٢- يعنى : صلاح سالم، وجمال عبد الناصر.

٣- الزبى: جمع زبيه، وهى الرابية التى لا يعلوها الماء، ويقال فى المثل: "بلغ السيل الزبى"، وهو يضرب للأمر بتفاقهم أو يتجاوز الحد، حتى لا يتلافي.

٤- الآل: هو السراب.

٥- الأبيات من الكامل التام.

يسخر "هاشم الرفاعي" هنا من عنف سياسة قادة مصر السياسيين – أمثال: جمال عبد الناصر، وصلاح سالم – القائمة على القهر والاستبداد، وكبت الحريات، فقد زاد استبدادهما على كل استبداد وظلم،حتى بلغ الظلم عندهما حدا لا يطاق.

ويذكر بعض الكتاب أن جمال عبد الناصر أخذ "يسخر كل وسائل الانتقام لتصفية كل من وقف فى وجهه، فبدأ بإعادة الرقابة فورا على الصحف، وبصورة خاصة "جريدة المصري" ، وفتح أبواب السجون والمعتقلات مرة أخرى يسوق إليها المئات يسوق كل من كتب عن الحرية، كل من اشترك فى إصدار قرار يطالب بعودة الحياة النيابية، كل من تحدث فى أى مكان عن الديمقراطية، يسوقهم إلى المعتقلات ليلقوا أسوأ وأفظع وأحط ألوان التعذيب والبطش" [٢].

وبالتأمل فى النص، نجد أنه غائم بجو السخرية والتهكم المزرى من سياسة القهر والجبروت التى حكمت البلاد، فألهبت الظهور، وأرغمت الأنوف، وكممت الأفواه، ودبرت المكائد لكل حر شريف.

والسخرية هنا تدل على بغض الشعب لهذا النوع من السياسة، وعلى تمرده وسخطه على القادة السياسيين الذين ساموهم سوء العذاب والنكال.وقد استحسن القائمون على أمر البلاد سلاح العنف،وقدموه على كل وسيلة حضارية.

*يقول "هاشم الرفاعي" ساخرا من سياسة التنكيل والإرهاب والتعذيب التى يتخذها القادة المصريون سلاحا ضد أبناء بلادهم[٣]:

أنحى مصر نحيا اليوم أم فى جهنم ... فقد نضجت منا الغداة جلود

ثلاثة أعوام رأينا خلالها ... من الهول ما لا قد رأته ثمود

وذقنا من الإرهاب مالا يذوقه ... ولو مرة عند الحدود يهود

٢- جراح مصر/٤٧ .

٣- ديوان جراح مصر/٨٢ .

ولـــو كـــان ذلا ينتهـــى لا حتملتـــه ولكنـــه لم تبـــد منـــه حـــدود[1]

فى هذا النص، يرسم "هاشم الرفاعي" صورة للأوضاع السياسية الفاسدة، وهى صورة قاتمة باهتة، تظهر فى ثناياها أشباح الرعب والتنكيل والإرهاب الذى أظل البلاد فى هذه الفترة.

والسخرية – فى بيت الشاعر – قائمة على التشكك والاستريبة، فهو يبنى الصورة الماثلة على أمر مظنون، غير مقطوع به، فيتشكك فى كنه الشعب المصرى يحيا فى مصر.. أم فى جهنم !!

وهذا التشكك أشد إيلاما فى السخرية من الإخبار المباشر؛ لأنه بأسلوب الشك يسلب هؤلاء القادة صفات الرحمة،ويحرمهم من ملامح العدل والإنصاف وبذلك تبلغ السخرية غايتها ومداها.

وفى ظل سياسة العنف والشدة كثيرا ما تكبت الحريات تحت سيطرة الغضب والأنانية.

*يقول – أيضا – ساخرا من سياسة كبت الحريات التى فرضها الحكام على الصحافة، وتسخيرهم الإذاعة للدعاية لهم عام ١٩٥٥م[2]:

هـــذى الـــصحافة حـــرة أقـــلامها فـــى جـــوف أربعـــة مـــن الجـــدران

لم تخـــش بـــأس رقابـــة مـــن بعـــد أن ألقـــوا بهـــا فـــى ظلمـــة القـــضبان

أمـــا الإذاعـــة فهـــى بـــوق دعايـــة عـــادت بـــداء الوقـــر لـــلآذان[3]

ملئـــت بكـــل مخـــدر ومـــضلل مـــن مـــائع الأخبـــار والألحـــان[4]

يكشف الشاعر فى هذا النص عن صورة من صور الاستبداد الصارخة، وهى قيام بعض الحكام المصريين فى تلك المرحلة بفرض سلطانهم على الصحافة بما يقيد حريتها

١- الأبيات من بحر الطويل.
٢- ديوان جراح مصر/٦٩، ٧٠ .
٣- الوقر: ثقل السمع.
٤- الأبيات من بحر الكامل التام.

ويفقدها نشاطها؛ ذلك لأن الصحافة الحرة هى عين الشعب التى تراقب الحكام والمسئولين، وترصد أخطاءهم، وتفضح انحرافاتهم السياسية، ومن هنا : اتبع حكام مصر سياسة التضييق على الصحافة، وقد تمثل ذلك في: مصادرتها أحيانا، أو توجيه الصحفيين حتى ينكروا الحق، ويروجوا للباطل.

أما عن الإذاعة، فقد استغلها الحكام والقادة أيضا للدعاية لهم، والإشادة بإصلاحاتهم فى البلاد، ثم هى وسيلة لتضليل الشعب عن الحقائق الواقعية، وتخدير أعصابه.

والسخرية كامنة فى أن الصحافة فى مصر حرة ... لكن بين أربعة من الجدران!! وأنها لا تخشى بأس الرقابة عليها... وخاصة بعد أن وضع أصحابها خلف القضبان!!

وتبدو السخرية من الإذاعة ...فى جعلها بوقا للدعاية والتضليل...بما تحمل هذه الكلمة من معانى الطنطنة والفرقعة الفارغة.

وهى سخرية تجسد الأزمة الحقيقية التى منيت بها الصحافة فى المجتمع المصري.

٢.السخرية من الصراع القائم بين أحزاب مصر السياسية:

عرفنا أن هذه المرحلة هى مرحلة حكم الأحزاب السياسية، وشئ طبعى أن يحدث بين هذه الأحزاب – على كثرتها – شئ من الاحتكاك والمضايقات التى تصل أحيانا إلى حد الاتهامات والكيد لبعضها، مما جعل صفحة الحياة تبدو كئيبة ومؤلمة.

ولقد كان هذا التناحر، وهذه الصراعات القائمة بين الأحزاب السياسية سببا قويا دفع شعراء مصر فى تلك الفترة إلى السخرية من قادة هذه الأحزاب والكشف عن خداعهم وأطماعهم التى كانت البلاد ضحية لها.

*يقول "أمير الشعراء" أحمد شوقى ساخرا من زعماء هذه الأحزاب وكاشفا النقاب عن وجوههم الخادعة التى وثق الشعب بها، فكان النتيجة أن اختلفوا، وغلظ بعضهم على بعض، يقول[1] :

١- الشوقيات، ج١/١٧٠، طبعة دار الكتاب العربي- بيروت.

إلام الخلـــف بيـــنكم ؟ إلا مـــا ؟ وهـــذى الـــضجة الكـــبرى علامـــا؟
فـــيم يكيـــد بعـــضكم لـــبعض؟ وتبـــدون العـــداوة والخـــصاما
شـــببتم بيـــنكم فـــى القطـــر نـــارا على محتلـــه كانـــت سلامـــا
تبـــاغيتم كـــأنكم خلايـــا مـــن الـــسرطان لا تجـــد الـــضماما[1]
أرى طيـــارهم أو فـــى علينـــا حلـــق فـــوق أرؤســـنا وحامـــا
وأنظـــر جيـــشهم مـــن نـــصف قـــرن علـــى أبـــصارنا ضـــرب الخيامـــا
ونلقـــى الجـــو صـــاعقة ورعـــدا إذا قـــصر الـــدبارة فيـــه غـــاما[2]
ذا انفجـــرت علينـــا الخيـــل منـــه ركبنـــا الـــصمت،أو قـــدنا الكلامـــا[3]

يسخر أمير الشعراء- فى هذا النص – من قادة الأحزاب السياسية المتصارعة وينعى عليهم اختلافهم فيما بينهم دون مبرر إلا المصالح والمآرب الشخصية لأصحاب كل حزب، فالمحتل ما يزال جاثما فوق صدر الأمة، يكتم أنفاسها، ويشجع على ازدياد هوة الخلاف بين الأحزاب السياسية؛ حتى يتمكن هو من إحكام قبضته وتشديد حصاره على البلاد.وتكمن السخرية هنا: فى عدم جدوى هذا الخلاف، وفى وصفهم – حالة اشتداد الخلاف والنزاع بينهم – بأنهم يشبهون خلايا السرطان التى لا تجد من يوحد بينها.

كما تكمن السخرية: فى وصف قادة هذه الأحزاب بالجبن، فهم إذا شعروا ببادرة غضب من المندوب البريطانى ، لاذوا بالصمت القاتل، أو هرعوا إلى إلقاء كم هائل من الخطب الرنانة التى تحمل معانى الاعتذار حتى لا يغضب عليهم!!

*ويقول الشاعر "أحمد الكاشف" ساخرا من دواعى الخلاف والنزاع القائم بين زعماء الأحزاب السياسية فى مصر[4]:

أتخـــاذل زعمـــاء مـــصر أمـــام هاويـــة عميقـــة ؟

١- الضمام:ما يضم به الشئ إلى الشئ، وضمام الشئ: ما يشمله وينطوى عليه.
٢- قصر الدبارة: هو مقر إقامة المندوب البريطانى فى مصر.
٣- الأبيات من بحر الوافر التام.
٤- ديوان الكاشف /٢٩٨، ٢٩٩ .

أى العقـــــاب أحـــــق بالـــــر جـــل الـــذى يـــؤذى رفيقـــه؟
عـــاد الغـــريم لمـــصر يعـــ(م) بـــس بعـــد خدعتـــه الدقيقـــة
يقـــضى بـــشدة بأســـه فيهـــا لـــدعواه الرقيقـــة![1]

فالشاعر- هنا- يكشف لنا عن سبب قوى من أسباب الشقاق والخلاف بين أحزاب الأمة، وهو أن المحتل الدخيل يرغب فى ذلك، وفى سبيل تحقيق هذه الغاية الماكرة قام يدعو إلى خدعته الخبيثة، وهى العمل على إنشاء دستور للبلاد وإجراء انتخابات لنواب الأحزاب، ثم الفشل فى ذلك ، مما كان سببا لازدياد حدة الصراع وكثرة السباب والشتائم بين زعماء هذه الأحزاب.

وتكمن سخرية الشاعر من زعماء الأحزاب هنا: فى رميه لهم بالضعف والتخاذل أمام بواعث الشر التى يبديها لهم عدوهم، أبينما هم أهل شراسة وكيد فيما بينهم، يشهر بعضهم على بعض سلاح السباب لأقل الأسباب، والاستفهام فى البيت الأول يحمل ألوانا شتى من السخرية، تجسدها اللغة والموقف.

كما تكمن سخرية الشاعر فى وصف خدعة المستعمر بإنشاء دستور للبلاد بأنها خدعة "رقيقة"، فهى رقيقة فى الظاهر، ولكنها تنطوى على خراب ودمار وفساد استمدته من ظلمة قلوب أصحابها ومخترعيها.

*وعلى نفس هذا الدرب تبدو خطا الشاعر البائس "عبد الحميد الديب"[2] حين يقول[3]:

أبـــين عجاجهـــا نبـــلى بخلـــف يؤججـــه انقـــلاب وانتخـــاب[4]
نعـــام فـــى الـــوغى يـــا آل مـــصر وفـــى غـــير الـــوغى ظلفـــ ونـــاب
ومـــا يبغـــون حربـــا أو سلامـــا ولكـــن كـــل همهمـــو اكتـــساب

١- الأبيات من مجزوء الكامل.
٢- ولد الشاعر عبد الحميد السيد الديب عام ١٨٩٨م بقرية "كمشيش" مركز البتانون، منوفية، لم يواصل تعليمه، وعانى كثيرا فى حياته، وله شعر جيد، توفى عام ١٩٤٣م.(ينظر فى الترجمة: الأعلام، الزركلى ج٢٨٦/٣).
٣- الشاعر البائس عبد الحميد الديب، بقلم د. عبد الرحمن عثمان/٩٨، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر- مكتبة دار العروبة – القاهرة .
٤- العجاج: الغبار.

تبدو سخرية الديب من أبناء وطنه هنا بوضوح، فهو فى بيته الثانى يسخر منهم معتمدا فى سخريته على أسلوب المقارنة بين وصفين،فآل مصر "نعام" فى أوقات الحروب والمحن، بما تحمله كلمة "نعام" من دلالة على الجبن والفرار فى أوقات الشدة بينما هم فى وقت السلم "أسود" لها أنياب وأظافر، وهذه الصورة المقارنة مؤلمة وموجعة ؛ لأن الأصل أن يكون العكس هو الثابت.

والسخرية هنا تدل على فداحة الخطب الذى أصيبت به مصر بسبب وجود المستعمر على أرضها، وبين أبنائها.

*وقد يكون الخلاف بين بعض هذه الأحزاب بسبب الاختلاف على المنافع والمآرب الشخصية.

*نجد ذلك فى قول الشاعر "أحمد الكاشف" ساخرا من الحزبية البغيضة التى ترتب عليها اشتداد التناحر والترشق بين زعماء الأحزاب[1]:

تنازع قومى اليوم جندا وقادة ... فلم أر إلا سالبا وسليبا

مبادئ أحزاب أرى أم منافعا ... توالت صنوفا بينهم وضروبا

تقضت حروب العالمين ولم أزل ... أرى بين أبناء البلاد حروبا

بقومى على قومى استعان غريمهم ... فصال شمالا واستطال جنوبا[2]

كان من دواعى الشقاق والخلاف بين أحزاب مصر السياسية: الاختلاف بسبب المنافع والمكاسب المادية، لذا يركز الشاعر فى بيته الثانى على هذه الناحية ويسخر من اختلافهم لهذا السبب، ويبنى الشاعر سخريته على الصورة المشكوك فيها:

مبادئ أحزاب أرى أم منافعا ... توالت صنوفا بينهم وضروبا

فهو يتشكك فى كون ما يراه من الاختلاف بين الأحزاب قائما على المبادئ أم على المنافع والمآرب !

١- ديوان الكاشف/٣٢٩ .

٢- الأبيات من الطويل.

وهذا التشكك أشد إيلاما فى السخرية؛لأن الشاعر بهذا الشك يسلب من هؤلاء القادة المصداقية فى خدمة الوطن، كما أنه يسلبهم المصداقية فى تحقيق المنافع الشخصية لأنفسهم، فهم ليسوا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وهذه سخرية مؤلمة وموجعة.

وفى جو الاختلاف، واتباع الأهواء، يبرز عنصر التشفى من الآخرين لأوهى الأسباب، مما يكون دافعا قويا إلى السخرية.

*يقول "أحمد شوقي" ساخرا من قادة الأحزاب المختلفين عندما أصبح الحكم بالهوى، والانتقام من مناوئيهم هو الغاية والهدف[1]:

لينا الأمر حزبا بعد حزب	فلم نك مصلحين ولا كراما
جعلنا الحكم تولية وعزلا	ولم نعد الجزاء والانتقاما
وسسنا الأمر حين خلا إلينا	بأهواء النفوس فما استقاما[2]

فشوقى – هنا – يسند إلى قادة الأحزاب السياسية أوصافا ونعوتا ليست منهم ببعيدة ، فهم عندما تولوا الحكم فى البلاد حزبا بعد حزب، لم يكونوا مصلحين ولا كراما فقد أخذوا يولون من شاءوا ، ويعزلون من شاءوا، واستغلوا سلطانهم فى الانتقام من مناوئيهم، وحكموا بالأهواء وجعلوها مصدر التشريع والقضاء.

وهذه الصورة الساخرة التى رسمها الشاعر لقادة الأحزاب، تدل – فى وضوح – على كرهه لهذه الأوضاع الفاسدة، كما أنها تحرض من جهة أخرى على التغيير والدعوة إلى خلق كفاءات مخلصة تحمل على اكتافها عبء حماية مصالح الوطن.

*وعندما يسود الحكم بالهوى ، تصبح الأمور فى حالة من الفوضى والاضطراب، مما يكون باعثا على توجيه النقد اللاذع.

*يقول الشاعر "إبراهيم ناجي" [1]ساخرا من فوضى تناحر الأحزاب السياسية واختلاف مقاصدها فى المجتمع المصري[2]:

١- الشوقيات، ج١/١٧٠ .

٢- الأبيات من بحر الوافر التام.

أى البلاد هو السعيد وأهله يتنابذون تنابذ الأضداد؟
كل يعيش لنفسه فى أمة شقيت بطول تفرق الأفراد
خذوا السبيل إلى الحياة تآلفا وتكاتفا فى رغبة وبداد[٣]

فناجى – فى هذا النص – يسخر من روح الفرقة والتنابذ البغيض الذى ساد بين أبناء الأمة المصرية فجعلهم كالأضداد المتعاندة التى لا يجمعها تآلف أو تعاون.

ويسخر الشاعر – كذلك – من روح الأثرة والأنانية وعدم المبالاة التى قادت هؤلاء الزعماء إلى السير على غير هدى، وتقديم مصالحهم الشخصية على مصالح الوطن، مما جعل واقعهم مترديا، ومستفزا لمشاعر الأدباء فى المجتمع.

والسخرية – هنا – تضج بالثورة ضد هذه المظاهر السلبية التى تفتك بمستقبل الأمة، وتورث أبناءها الشقاء والدمار، وتنشد تطوير الواقع.

*وشيء طبعي- مع سيادة روح الحكم بالهوى – أن يكثر السباب والشتم ، وأن يكون هو الصفة الغالبة على روح الأحزاب السياسية فى مصر.

لذا، نجد الشاعر "محمود غنيم" يسخر من هذه الظاهرة التى تقع نتائجها فى نهاية المطاف على عاتق الوطن، يقول من قصيدته "معترك السباب" [٤]:

سكن الحسام إلى القراب (م) وقيم معترك السباب[٥]
تترك النسور مكانهم لطنين أجنحة الذباب[٦]
وخلا المجال لكل صو (م) ال بلا ظفر ونـاب

١- هو إبراهيم ناجى بن أحمد ناجى القصبجي، طبيب مصرى شاعر، ولد بالقاهرة عام ١٨٩٨م واشتغل بالطب والأدب، وكانت فيه نزعة صوفية ، وله شعر كثير، وتوفى عام ١٩٥٣م.
(ينظر فى الترجمة: الأعلام، الزركلي، ج١/٧٦).
٢- الأعمال الكاملة للشاعر إبراهيم ناجي، الجزء الثالث/١٤٢، ط٣، دار الشروق ١٩٨٨ .
٣- الأبيات من بحر الكامل التام.
٤- الأعمال الكاملة للشاعر محمود غنيم ج١/٨٣ .
٥- الشطر الأول: كناية عن انتهاء الحروب.
٦- المراد بالنسور: الطيارون.

قـــومى نعـــام فـــى الحـــرى (م) ب وفـــــى التنـــــابز أســـــد غـــــاب[1]

يترَشـــقون بكـــل منـــد (م) يـــة كمـــــــــــسموم الحـــــــــــراب[2]

فالشاعر "محمود غنيم" يسخر ويتهكم بالأحزَاب السياسية، وذلك من خلال تقديم أوصاف متعددة لهم. هو يصف ألوان السباب التى يترَمون بها، وما تثيره من جلبة وفرقعة بأنها مثل طنين أجنحة الذباب فى حقارة الشأن ، وعدم الفائدة.

كما أنه يصفهم بالجبن والفرار من المواقف الجادة الحاسمة لمستقبلهم ومستقبل وطنهم، أما فى مجال التنابز والتداعى بالألقاب، فهم أسود مفترسة أو أشواك مؤذية، وهذا المعنى مطروق فى الشعر العربى على امتداد عصوره.

ولعلك تلحظ- درجة الإيلام التى تنطوى عليها هذه السخرية،فالشاعر أتى بكلامه مبنيا على أساس من الصورة الإيجابية، فهو يلقى علينا- كما نرى- أخبارا موجبة، فيها التقرير والتأكيد لما قدمه من أوصاف لهؤلاء القوم ثم إنك لا تلبث أن تجد أن هذه الأوصاف أوصاف مرذولة، تجلب إلى صاحبها ألوانا من القدح والتجريح.

* ولما كان لكل حزب من هذه الأحزَاب السياسية صحيفة ناطقة بلسانه، فقد انتقلت هذه المعارك الهزيلة إلى صفحاتها.

* واستمع إلى شاعرنا "على الجندى" الذى يسخر من خلاف قادة الأحزَاب السياسية وإعلان ذلك على صفحات الجرائد الخاصة بكل حزب.

يقول من قصيدته "المعارك الصحفية" [3]:

مـــــالى أرى الأقـــــلام نافثـــــة فـــوق الطـــروس سمـــوم أصـــلال

وقـــد استحـــالت فـــى أنـــاملكم أســـــلاتها أنيـــــاب أغـــــوال

أنـــى فتحـــت صحـــيفة وقعـــت عينـــى علـــى أنقـــاض تمثـــال

يـــا ويحكـــم ألقـــوا معاولكـــم هـــذا البنـــاء جهـــود أجيـــال

١- التنابز: التعاير والتداعى بالألقاب.

٢- الأبيات من مجزوء الكامل (عروضه صحيحة، وضرب مرفل).

٣- ديوان أغاريد السحر/١٦٦، ١٦٧ .

زعمـــاء مـــصر-علـــى كـــرامتهم مرغتمـــــوهم فـــــوق أوحـــــال
أعراضـــــهم بنـــــصال أسهمكـــــم باتـــــت مثقبـــــة كغربـــــال
بـــــالأمس أكـــــبرتم بطولتهـــــم واليـــــوم بـــــاتوا غـــــير أبطـــــال
أتراهمـــــو فـــــى ســـــاعة سلبـــــوا مـــــا كـــــان مـــــن فـــــضل وأفـــــضال؟
أتراهمـــــو فـــــى لحظـــــة لبـــــسوا أثـــــواب محتـــــال ودجـــــال ؟![1]

فالشاعر – هنا – يسخر من المعارك الصحفية الهزيلة التى نشطت فى فترة حكم الأحزاب السياسية للبلاد، والتى كثر فيها الترشق بالتهم بين قادة هذه الأحزاب، وتقارض السباب المقذع ، حتى خيل إلى الناس أنه ليس فوق أديم مصر رجل واحد يستحق أن تطمئن البلاد إلى خلقه، وتثق بوطنيته، وتعول على إخلاصه.

وتكمن السخرية من الصحف اليومية للأحزاب فى وصف ما يكتب فيها بأنه أشبه شئ بالسموم القاتلة.

واختيار كلمة "أصلال" بمعنى "حيات" تعطى إحساسا بشدة الأذى، كما أنها توفر جوا من القلق النفسى والاشمئزاز من كل ما يكتب فى هذه الصحف.

وتكمن السخرية من هذه الصحف أيضا فى وصف كتابها بالتخبط، وعدم قدرتهم على فهم الواقع السياسى الذى تعيشه بلادهم، فزعماء مصر – فى نظرهم- أبطال تارة وتارة أخرى غير أبطال ... فهل البطولة أو عدمها مما يسهل على الإنسان تغييره بين لحظة وأخرى كتغييره للثياب؟!

والسخرية هنا:تدل على رفض الدور الآثم الذى تقوم به الصحافة المغرضة فى هدم الزعامات الوطنية؛ انتقاما لحزب معين، أو إرضاء لعدو مغتصب يذكى نار العداء بين أبناء الوطن.

*وشئ طبعي- فى مثل هذه الأجواء- أن يفقد الدستور هيبته فى النفوس وأن يظهر المصريون فى صورة غير القادرين على حكم أنفسهم.

١- الأبيات من بحر الكامل التام (عروضه حذاء ، وضرب أحذ مضمر).

*يقول الشاعر "أحمد الكاشف" ساخرا من قادة الأحزاب السياسية الذين أفقدوا الدستور هيبته وسلطانه فى النفوس؛ بسبب ما بينهم من خلافات وصراعات لا تخدم قضية الوطن. يقول من قصيدته "ضمائر فى سوق تباع وتشترى" [1]:

ما قيمة الدستور والخلف بينكم ... إذا لم يجمع شملكم ويؤلف

توالت رايات الخصومة حولكم ... فلم تلق إلا مرجفا بعد مرجف

أترجون أن الشعب وهو معذب ... يرحب بالمخدوع منكم ويحتفى

وتبغون إشرافا على الشعب منكم ... وأنتم أحق اليوم منه بمشرف[2]

لقد فقد الشعب ثقته بهؤلاء المتصارعين جميعا، وأصبح الدستور – فى نظره – لعبة يرتادها كل صالح وطالح.

ولعل مكمن السخرية هنا فى البيت الأخير، حين قلب الشاعر الأمور وعكس المقصود، فنواب الأحزاب وقادتها يريدون – بهذا الصراع – أن يتحقق لهم شرف الإشراف على الشعب، ورعاية مصالحه، بينما هم – فى حقيقة الأمر- أحق وأولى بأن يكون هناك من يشرف عليهم، ويرعى شئونهم، ويصلح ذات بينهم.

وهذه سخرية قاتلة، تسلب هؤلاء القادة إمكانية تحمل مسئولية أنفسهم، فكيف بهم وهم يريدون أن يتحملوا عبء مسئولية الشعب بأكمله؟!

٣.السخرية من الانخداع والتبعية:

الانخداع والتبعية من أسوأ مظاهر الضعف والتأخر فى حياة أمة من الأمم أو شعب من الشعوب.

وقد لعبت الخديعة من جانب المستعمر دورا كبيرا فى تخدير أعصاب الشعب المصرى على مدار التاريخ الطويل، حيث وعد وأخلف، وعاهد وماطل فى الوفاء، وحلف

١- ديوان الكاشف/٣٨٩ .

٢- الأبيات من بحر الطويل.

وحنث. وقد أعانه على ذلك ما وجده فى طبيعة الشعب المصرى من قابلية للانخداع والتبعية للغير بسهولة ويسر، نظرا لإفراطه فى الثقة بالغير.

* وقد واجه الشعب المصرى كثيرا من المتاعب بسبب هذه السذاجة، مما دفع الشعراء إلى جعل ذلك مادة لسخريتهم.

فهذا "شوقى" يسخر من سذاجة المصريين، وانخداعهم بالوعود الكاذبة حين يقول[1]:

يـــــدللون إذا أريـــــد قيـــــادهم كـــالبهم تـــأنس إذ تـــرى التـــدليلا[2]

يتلـــو الرجـــال علـــيهم شـــهواتهم فالنـــــاجحون ألـــــذهم ترتيـــــلا[3]

فالمستعمر الدخيل قد فهم حقيقة النفسية المصرية، فهو إذا أراد أن يقودهم ويخدعهم فى أمر من الأمور، فما عليه إلا أن يدللهم، ويظهر لهم الألفة والانبساط فينقادون له بيسر وسهولة، ثم يأخذ بعد ذلك فى إملاء شهواته ومطامعه عليهم فيسرعون إلى الاستجابة له، وإلى التسبيح بحمده ليلا ونهارا.

وتكمن السخرية فى البيت الأول، حين يشبه الشاعر المصريين فى سكونهم وهدوئهم أمام تدليل عدوهم لهم، بالصغيرة من المعز أو الضأن التى تسكن وتنقاد عند تدليل صاحبها لها.

وهى سخرية مؤلمة ولاذعة، وهى تدل دلالة واضحة على سرعة انخداع المصريين بالتدليل والوعود البراقة.

وقد ترتب على ذلك أن صار المصريون تابعين لغيرهم فى كل شئ.

*يقول "العقاد" [4] ساخرا من أغلال التبعية القابضة على أعناق المصريين بعنف وشدة[1]:

١- الشوقيات، المجلد الأول، الجزء الأول/١٨٢ .

٢- التدليل: الانبساط وإظهار المحبة.

٣- الأبيات من بحر الكامل التام (عروضه صحيحة، وضرب مقطوع).

٤- هو عباس بن محمود بن إبراهيم بن مصطفى العقاد، إمام مصرى فى الأدب، أصله من دمياط، وولد فى أسوان ١٨٨٩، وتعلم فى مدرستها الابتدائية ، وشغف بالمطالعة، وعمل موظفا بالسكة الحديدية، وبوزارة الأوقاف، ثم

أتـــوام هـــذا الـــشرق مـــا ســـئمت ... شـــيم العبيـــد، وقبحـــت شـــيما
لا يحفلـــون بغـــير مـــن رفعـــت ... ســـاداتهم، فليرفعـــوا الخـــدما
لا غـــرو يعلـــو كـــل ذى صـــغر فـــيهم ... ولايعلـــــون مـــــن عظمـــــا
مفروضـــة قـــيم الرجـــال علـــيهم ... والحـــر يفـــرض وحـــده القيمـــا
ســـيان إن حكمـــوا وإن حكمـــوا ... لا يجعلـــون عقـــولهم حكمـــا[٢]

فالعقاد – فى هذا النص – يسخر ويتهكم بالمصريين الذين ألفوا نظام التبعية لغيرهم، والتبعية رق واستعباد، وضعف وتأخر، لذا هانوا وضعفوا، وأصبحوا حقلا لتجارب الزيف الوافد من أوربا وغيرها، كما أنهم صاروا إمعات، يتبعون كل ناعق، ويصيحون وراء كل فاسق.

وتكمن سخرية الشاعر – هنا- : فى وصفه لأبناء الشرق الإسلامى بأنهم لم يسأموا قيد العبودية لغيرهم بعد، لذا، فهو يطلب منهم أن يرفعوا الخدم والأوغاد إلى عليين كمذهب المستعمرين، الذين قلبوا المقاييس والنظم.

* كما تكمن السخرية فى البيت الأخير: حين يصف العقاد المصريين بأنهم لا يحتكمون إلى قانون العقل، سواء أكانوا حكاما أم محكومين، وإنما يصدرون فى كل تصرفاتهم عن تبعية كاملة لغيرهم، واستسلام للهزيمة الداخلية التى سلبتهم روح الحرية والتمرد.
* وتدل السخرية هنا: على بغض الشاعر لهذا المسلك عند المصريين، باعتباره مظهرا من مظاهر الضعف والتأخر فى حياتهم، كما أنها ترفض حالة التردى التى وصل إليها واقع المصريين فى تلك الفترة.

انقطع إلى الكتابة فى الصحف والتأليف، أخرج أنواعا شتى من الأدب الرفيع، وله شعر كثير، وتوفى عام ١٩٦٤م (الأعلام، الزركلي، ج٤ /٢٦٦).

١- ديوان العقاد، الجزء العاشر/٨٨٣، منشورات المكتبة العصرية – صيدا- بيروت.

٢- الأبيات من بحر الكامل التام (عروضه حذاء، وضرب أحذ).

* ومن أنماط التبعية عند المبصريين: افتخارهم بأمجادهم التاريخية، وادعاؤهم التبعية لهم، مع تضييعهم لحاضرهم الراهن، وهذا من شأنه أن يحدث لونا من التناقض الغريب الذى يدفع إلى السخرية.
* يقول الشاعر "فخرى أبو السعود" ساخرا من المصريين الذى يتباهون بالماضي ويفخرون بالتبعية له مع تضييع حاضرهم الراهن[1]:

يطولون بالجاه العزيز تفاخرا ... ونطرق من ذل الإسار ونخشع
ونشحذ من آبائنا وجدودنا ... فخارا على أعقابهم ليس يخلع
هم دوننا أهل الفخار ولم يكن ... علو أب فى حطة الولد يشفع
نتيه بتاريخ لهم ومآثر ... قيام على الأيام لا تتزعزع
وما هى ما لم تحى إلا صحائف ... بوال وأطلال خوال وأربع
وفيم تباهينا بعز ورفعة ... وحاضرنا قفر من العز بلقع؟
تبرأ ماضى المجد منه ولو درى ... لطاش له خوفو وأذهل خفرع
رأوا أمة تمشى وراء زمانها ... وقد عرفوها فى الطليعة تطلع[2]

يسخر الشاعر "أبو السعود" هنا من وضع المصريين المزرى، حين يتفاخرون بأمجاد آبائهم وأجدادهم الماضين، وهم مضيعون لحاضرهم، مطرقون من ذل والإسار، يعيشون فى زمن غير زمنهم، ويلبسون ثيابا غير ثيابهم.

وتكمن سخرية الشاعر من أبناء وطنه – هنا-: فى تسمية افتخارهم بماضى الآباء والأجداد "شحاذة" وتسولا على موائد السابقين، بما تحمل كلمة "الشحاذة" من معانى التشرد والضياع، وفقدان الهوية.

١- ديوان فخرى أبو السعود/٩٤ .
٢- الأبيات من بحر الطويل.

كما تكمن السخرية: فى وصفه للأمة المصرية، بأنها "أمة تمشى وراء زمانها"، فهى أمة سوقة متخلفة، ليس لها من الفضل والمجد ما يدفع بها إلى مقدمة الصفوف.

وهى سخرية لاذعة، تكشف عن مساوئ التبعية والرجعية والسلبية، التى تهدم مجد الأمة، وتعصف بحاضرها عصفا.

* ومن صور التبعية للغير: أن يقف الإنسان دائما إلى جانب الظالم القوى مؤيدا له فى كل شئ.
* يقول "العقاد" ساخرا من بعض ضعاف النفوس من المصريين، الذين يحاولون إرضاء الظلمة، والتصفيق لهم بالحق وبالباطل[1]:

كلكم كلكم مع الغالب الظا (م) لم ... لا تعدموا من الظلم رغما[2]

لو وقفتم يوما إلى جانب المغلو (م) ب ... ما فاز غالب قط ظلما[3]

يسخر "العقاد" من السلوك السلبى لبعض المصريين، حين يقفون إلى جانب الطغاة والمتغطرسين ، ويصفقون لكل من يسومهم سوء العذاب، فالإهانة والمذلة لاحقة بهم سواء أكانوا حكاما أم محكومين.

والسخرية – هنا – تدل على خطأ المسلك، وضعف الشأن، وهوان الشخصية المصرية، إذ كان الواجب أن تكون وقفتهم إلى جانب المظلوم ، فذلك فى حد ذاته هزيمة وانكسار للظالم، وتقليم لأظافر الشر.

٤. السخرية من سكوت المصريين على ضياع الحقوق:

الحق فى ملة الإنسان قيمة من أسمى القيم، وأرفع المطالب، وأثمن ما ينشده وأبقاه، فـ"الإنسانية خلال التاريخ الطويل قد بحثت عن الحق بعين أضر بها الجهد وأسقمها السهاد، وقلب خافق قد أتبعه الوجيب، وبرح به الشوق، لتبلغ مداه، وتنتهى إلى

١- ديوان العقاد، الجزء الثامن/٦٥٦ .
٢- الرغم:الرغام، وهو التراب، ويقال: فعله رغما عنه: أى على كره منه.
٣- الأبيات من الخفيف التام.

عليائه، وتجتلى وجهه... ففى كل زمان، ومكان، وعند الشعوب جميعها، والأمم على اختلافها، وفى شتى الأحوال والبيئات، وعند المتحضرين والهمج المتوحشين، قد آثر الإنسان الدمار والخراب، واختار الموت والهلاك على أن يهجر الحق" [1].

فالتمسك بالحق تمسك بمعانى النبل والكرامة، والتفريط فيه، والسكوت على ضياعه، يعد تفريطا فى كرامة الإنسان، واستهانة بأسمى المعانى فى حياته فضلا عن أن ذلك يعد دليلا على فتور الحماسة، ونضوب العقيدة.

ورغم هذه الأهمية القصوى التى تتسنمها قيمة الحق فى حياتنا، فإن بعض النفوس قد تفتر عنه أحيانا، إما بسبب الخمول واللامبالاة، وإما بسبب سياسة القهر التى تلهب ظهور عشاق الحق، وطلاب القيم.

وعلى أى حال، فإن تفريط الإنسان فى حقوقه المشروعة، يعد مظهرا من مظاهر الضعف، وملمحا من ملامح الانتكاسة فى حياتنا.

لأجل ذلك، وجدنا كثيرا من شعراء مصر – فى هذه الفترة – يرفعون أصواتهم بالسخرية والتهكم من المصريين الذين سكتوا على ضياع الحقوق، وتحملوا المظالم والمتاعب تحت ظلال سياسة القهر والجبروت التى استعملها المحتل معهم دون أن تصرخ فى أفواههم بادرة من غضب، أو باعثة من رفض أو تمرد.

*يقول شاعر النيل"حافظ إبراهيم" ساخرا من حالة الغفلة والخمول والكسل التى غشيت أبناء الوطن ، فشلت فى داخلهم بوادر اليقظة ، والسعى إلى حياة حرة كريمة، مما كان سببا قويا لأن يحكم المحتل قبضته على البلاد[2]:

قالوا: دخيل عليه العفاء ... ونعم الدخيل على مذهبي[3]

نأنيا ولا نفق ... فشمر للسعى والمكسب

وماذا عليه إذا فاتنا ... ونحن على العيش لم ندأب[1]

١- فصول فى الأدب والنقد والتاريخ، على أدهم/٢٠٩، ٢١٠ .
٢- ديوان حافظ إبراهيم /٢٥٧، ٢٥٨ .
٣- الدخيل: الأجنبى المحتل.

ألفنـــا الخمـــول ويـــا ليتنـــا ألفنـــا الخمـــول ولم نكـــذب[٢]

يعتمد "حافظ" على سخريته من المصريين – هنا – على أسلوب المقارنة بين حالهم ، وبين حال المحتل الغاصب.

فالمصريون: قد ضرب النوم والكسل أطنابه عليهم، والمستعمرون: قد شمروا سواعدهم واندفعوا بقوة نحو العمل الذى يرقى بالحياة، حتى أصابوا فى مصر حظا من الثروة لم يتوفر لأبنائها، وما ذلك إلا بسبب تقاعسنا نحن عن العمل والسعى وخمولنا فى مضمار الحياة، حتى صار بيننا وبين الخمول ألفة ومؤانسة.

ومع ذلك ، فنحن لا نعترف بالتقصير، وإنما ندعى – دائما- لأنفسنا الفضل والسبق بغير عمل، وهذه وسيلة العاجزين.والمقارنة بين الحالين هنا: تعطى جوا من المفارقة التى تكشف عن حالة الغفلة التى منى بها المصريون فى تلك الفترة.

* وإذا كانت الغفلة وألفة الخمول دليلا على الضعف ، فإن السكون على الظلم وضياع الحقوق، لدليل واضح على الجبن والمذلة، وهما أمران يستوجبان لفت النظر فى عنف وشدة.

* يقول الشاعر "فخرى أبو السعود" ساخرا من جموع المصريين الساكتين على الظلم والاستبداد، الراضين بالضيم؛ بسبب سياسة القهر التى يسلكها العدو معهم[٣]:

ويلـى علـى أمـم الإسـلام خاضـعة للمـستبدين لا يرثـى لهـا أحـد

مـن قـال لـي:مـن يقـر الـضيم؟قلت لـه المـسلمون، وعـير الحـى ، والوتـد!

فـى مـشرق الأرض قـد دانـوا ومغربهـا مـا كـاد ينجـو لهـم مـن غاصـب بلـد

فـى ربقـة الظلـم هـم جـاءوا وهـم ذهبـوا وفـى المذلـة قـد مـاتوا وقـد ولـدوا

١- دأب فى عمله يدأب: جد فيه واستمر عليه.

٢- الأبيات من المتقارب التام (عروضه صحيحة، وضرب محذوف).

٣- ديوان فخر أبو السعود/١٢٦ .

صـــلوا وصـــاموا لبـــاريهم تظللهـــم أعـلام مـن ظلمـوا أو سـيف مـن عنـدوا
اللّه لـيس يحـب الـدين مـن أمـم لغـيره طأطـأوا أو غـيره عبـدوا[1]

تكشف هذه الأبيات عن مظهر من مظاهر الضعف والتأخر فى حياة المصريين وهو خضوعهم لعدوهم، وخمود جذوة الثورة فى نفوسهم، وسكوتهم المزرى على عدم المطالبة بحقوقهم فى نيل الحرية والكرامة.

وتكمن السخرية اللاذعة – هنا – فى بيت الشاعر الثاني، حيث يحصر الشاعر أهل الذلة والهوان، ومن يرضون بالظلم دون أن تصدر منهم باعثة من رفض أو تمرد فى ثلاثة وهم: المسلمون،وعير الحي، والوتد.

فالمسلمون : ساكتون على ضياع حقوقهم، وسلب كرامتهم، راضخون لعدوهم، وغاصب خيرات بلادهم دون أدنى ثورة أو رفض.

وعير الحي: وهو حمار الحي، وهذا مربوط – دائما – على الخسف والمذلة، فلا هو يرفض هذا الوضع السئ، ولا هو يثور على قاتله وسالبه أعز ما يملكه وهو الحرية.

أما الوتد: وهو عود من خشب يثبت فى الأرض أو الحائط، فإنه – أيضا- صابر على الهوان والمذلة، ويضرب على رأسه ليغوص فى الأرض أو الحائط، مما قد يرتب عليه انشقاقه إلى نصفين، ثم هو لا يثور ولا يعترض.

والجمع بين "المسلمين" وبين "عير الحى" ، والوتد" فيه سخرية مؤلمة وموجعة وهى تدل على بلادة المصريين، وغياب شعورهم، مما جعلهم كالجمادات التى لا تحس ولا تتألم.

كما تكمن السخرية – أيضا – فى البيتين الرابع والخامس: حين يصور الشاعر المصريين، وقد صنع لهم المحتل قيدا من الظلم يلتف حول أعناقهم، فهو يجرهم به فى ذهابهم، وفى إيابهم ، وهم فى حالة من المذلة والهوان يرثى لها الجماد.

كما يصورهم الشاعر فى صورة أخرى مزرية، وهى صورتهم وهم يصلون ويصومون لخالقهم، وقد نصبت أعلام مغتصبهم فوق رؤوسهم، ثم هم لايفكرون – كما يدعوهم دينهم –

١- الأبيات من البسيط التام.

فى التحرر من قيود العبودية والمهانة، بل تركوا أنفسهم مطروحة فى أيدى الهوان تستعذب المذلة والصغار.

*ويقول "حافظ إبراهيم" متهكما المصريين، وسكوتهم المزرى على ضياع حقوقهم[1]:

إن عشرين حجة بعد خمس ... علمتنا السكون مهما تمادى[2]

أمة النيل أكبرت أن تعادى من رماها ... وأشفقت أن تعادى

ليس فيها إلا كلام وإلا ... حسرة بعد حسرة تتهادى[3]

يسخر "حافظ" فى هذه الأبيات من المصريين الذين ألفوا الغفلة والخمود وتجنبوا أن يظهروا العداء لعدوهم، ورأيهم فى هوة الضياع، ولم يتسلحوا إلا بسلاح الكلام، وتعداد المآسى والمحن النازلة بهم، فهم أمة كلام فقط.

وتكمن السخرية فى أن المصريين أمة صياح وكلام فقط، بينما نجد الصلة بينهم وبين الفعل والتنفيذ كالسراب الخادع، أو كالوهم.

* ولا شك فى أن سلاح الكلام غير مجد؛ لأنه لا يحمى حقا، ولا يدفع غاصبا.

*ويقول الشاعر "هاشم الرفاعي" ساخرا من بعض مظاهر الضعف عند المصريين وذلك من قصيدته "جزر الغرب" [4]:

ذى قوة قد راح يسطو بمخلب ... وناب على شعب وديع مسالم

ـن ضم فى جنبيه قلب نعامة ... فلا ينتظر إلا وثوب الضراغم[5]

والسخرية بادية فى صدر البيت الثاني، حيث يصف الشاعر أبناء الشرق بأن لهم قلوبا كقلوب النعام لا قلوب الرجال الأشداد، ولذا فإن المحتل الغاصب لا يبرح أن يثب على أرضهم وديارهم وأعراضهم كلما سنحت له الفرصة.

١- ديوان حافظ إبراهيم/٣٣٥ .

٢- الحجة: السنة.

٣- الأبيات من بحر الخفيف التام.

٤- الأعمال الكاملة للشاعر هاشم الرفاعي/١٧٣ .

٥- الضراغم: جمع ضرغام، وهو الأسد الضارى الشديد، والمراد بهم هنا: المستعمرون، والأبيات من بحر الطويل.

وتدل السخرية هنا: على جبن المصريين، واتصافهم بالخوف والفزع أمام كل أمر عظيم.

* وشئ طبعى أن تذهب كرامة المصرى حين يتهاون أو يتخاذل فى المحافظة عليها،ويصبح فى وطنه كالغريب.
* يقول الشاعر "صالح الشرنوبي" [1] ساخرا من جو الغفلة والخمول الذى يسيطر على المصريين، ومن سكوتهم المزرى على ضياع الحقوق، وانتهاك الكرامات، يقول من

قصيدته "يا شرق" [2]:

مجد يهان وعزة تتضعضع ... حتام أنت على الزمان مضيع[3]

يا أنت فى الدنيا؟ وماذا ترتجى ... ولكل حر فوق أرضك مصرع

ما زلت من ماضيك أقرب ثاكل ... عهدا بما يدمى العيون ويدمع

أيئست؟ أم آمنت أنك زائل ... ومن العقائد ما يضر وينفع

أمم كأطراف الجذيم فناؤها ... إرث على نوب الحياة موزع[4]

أبناؤها الغرباء فى أوطانهم ... كف مصفقة وأذن تسمع [5]

فصالح الشرنوبى ينعى على الشرق الإسلامى استسلامه وخضوعه لعدوه مما ترتب عليه زوال مجده وعزته، وموت الحريات فوق أرضه.

١- هو صالح علىالشرنوبي، ولد فى بلطيم بمحافظة كفر الشيخ، وذلك فى مايو ١٩٢٤م، حصل على الثانوية الأزهرية عام ١٩٤٧م، وكان عازما على الالتحاق بدار العلوم، ولكن خاب أمله فى ذلك، فالتحق بكلية أصول الدين، ثم تركها بعد شهور، وظل يبحث عن عمل حتى عمل مدرسا فى مدرسة ابتدائية فى بلطيم، وله ديوان شعرى كبير ، وتوفى عام ١٩٥١م (ينظر فى الترجمة: الأعلام، الزركلى ، ج١٩٣/٣).

٢- ديوان صالح الشرنوبي، تحقيق د.عبد الحى دياب/٥٥٥، الطبعة الأولى، دار الكاتب العربى بالقاهرة.

٣- حتام: أصله: حتى ما، حذفت ألف (ما) الاستفهامية تخفيفا ومعناه إلى متى؟ .

٤- الجذيم: من قطعت أطراف أصابعه بسرعة.

٥- الأبيات من الكامل التام .

وتكمن سخرية الشاعر هنا: فى وصف أبناء الشرق الإسلامى بأنهم غرباء فى أوطانهم، وأن حالهم مزرى، فهم ما بين كف تصفق لقاتلهم وغاصب حقوقهم وأذن تسمع،أوامره ونصائحه باهتمام.

والصورة الساخرة- هنا – مزرية، وخاصة حين نتخيل صورة المصريين وقد تحولوا إلى مجرد آلات.. كف تصفق للنافع والضار، وأذن تسمع لعدوها وتطيع أوامره، حتى ولو كان ذلك على حساب عزتها وكرامتها.

وتدل السخرية – هنا – على حالة الغفلة والتلاشي، التى أصيب بها أبناء الوطن من المصريين فى هذه الفترة.

ويقول الشاعر "محمد الأسمر" ساخرا من خضوع المصريين، واستسلامهم لظلم عدوهم[1]:

مررت بالشاء يوما فى مراتعها ... لها رعاة من الذؤبان والرخم[2]

فقلت يا شاء ما بال الرعاة هنا ... من كل آكل شلو أو مريق دم؟

فأنكرتني، وقالت وهى معرضة ... عليك نفسك، لا تنصح ولا تلم

فرحت أجمع نصحى من مسامعها ... وقلت معذرة يا أمة الغنم[3]

يسخر الشاعر – فى هذا النص – من مظهر من مظاهر الضعف والتأخر فى حياة المصرين، وهو سكوتهم على ضياع حقوقهم، وامتهان كرامتهم بهذه الصورة الفاجعة.

وتكمن سخرية الشاعر- هنا – من المصريين: فى تصويرهم فى صورة شياه وديعة عليها رعاة من الذؤبان المفترسة،والطيور الكاسرة، وهو صورة رمزية.

والسخرية – هنا – تبرز معانى المكر والدهاء الذى احتال به المحتل على أبناء الوطن حتى صيرهم ألعوبة سهلة التناول فى يده، كما تبرز حال المصريين المخزى وهم فى حالة من

١- النص من كتاب "مع الشعراء المعاصرين" د. محمد خفاجي/١٠٨ .
٢- الشاء: جمع، ومفرده: شاة ، وهى الواحدة من الضأن.
٣- الأبيات من بحر البسيط التام.

رفض الاستماع إلى نصح الناصح، وليس فى نفوسهم إشراقة من الرغبة فى كسر الحاجز، والثورة على الأوضاع الراهنة بما فيها من فساد وإذلال.

*ويقول الشاعر "محمود غنيم" ساخرا من سكوت المصريين عن المطالبة بحقوقهم المسلوبة فى المقام الذى يستدعى الكلام؛ لتقرير المصير وتحرير النفوس من رق الاستعمار[1]:

القـــــوم طـــــال سكوتهـــــم ... والـــــصخر يـــــومئ بالخطـــــاب[2]

أيقـــــال أبطـــــال الحمـــــى ... وضـــــعوا المطالـــــب فى العيـــــاب؟ [3]

وتمخـــــــضت عزمـــــــاتهم ... عـــــن قـــــصة الملـــــح المـــــذاب؟

وطـــــوت مقاليـــــد الأمـــــو (م) ر ... حماســـــهم طـــــى الكتـــــاب[4]

أيـــــن الـــــذى طلـــــب الجـــــلا (م) ء ... وراح يـــــصدق فـــــى الطـــــلاب؟

غـــــاب المطالـــــب بـــــالحقو (م) ق ... ولج فـــــى طـــــول الغيـــــاب

فـــــى وقـــــت تقريـــــر المـــــصير (م) ... ووقـــــت تحريـــــر الرقـــــاب

إن الرعـــــــاة تفرقـــــــوا ... ويـــــح القطيـــــع مـــــن الذئـــــاب!

تكمن سخرية الشاعر من المصريين هنا: فى وصفهم بالسكوت على حقوقهم المسلوبة، فى الوقت الذى يكاد الصخر ينطق فيه، ويشير إلى المطالب القومية للأمة.

كما تكمن السخرية فى البيتين السادس والسابع: حين يصف الشاعر المصريين بأنهم سكتوا عن المطالبة بحقوقهم فى الوقت الذى يتعين فيه الكلام؛ من أجل تحرير الأرض والنفس من مذلة الاستعمار.

١- الأعمال الكاملة للشاعر محمود غنيم/٨٥، ٨٦ .

٢- يومئ: يشير.

٣- العياب: جمع عيبة، وهى ما يشبه الحقيبة.

٤- مقاليد الأمور: مفاتيحها، والمفرد: مقلاد بمعنى مفتاح.

وتدل السخرية هنا دلالة واضحة على ما غشى المصرين فى تلك الفترة من خمود وخمول وتبلد فى المشاعر والأحاسيس، مما أتاح الفرصة للعدو المحتل للتمكين لنفسه فى البلاد.

٥. السخرية من الجمود والتخلف:

الجمود والتخلف فى ميادين الحياة مظهران من مظاهر الضعف والتأخر التى منيت بهما مصر أيام الاحتلال الإنجليزى لها، فقد كانت عوامل اليأس والإحباط تسيطر على النفوس، وتفتك بها أشد الفتك، مما جعل المصريين يزهدون فى كل شئ فى الحياة فأحجموا عن العمل، وعن التنافس فى مجالات العلوم والفنون، مما عاد عليهم وعلى بلادهم بالتأخر والتخلف عن غيرهم.

*وعندما يصبح الجمود والتخلف عقبة فى طريق تقدم المجتمع، يصبح من الضرورى مقاومتهما، والتصدى لهما.

*يقول "العقاد" ساخرا من الجهل الذى يعد معول هدم للشعوب والحضارات[1]:

بـــأس الطغـــاة تقـــول؟! مهـــلا عـــداك الذهـــول
هيهـــات يطغـــى ابـــن أنثـــى فـــى أمـــة أو يـــصول
مـــا لم يعنـــه عليهـــا جهـــل وحقـــد دخيـــل
همـــا الأصـــيلان فاعلـــم وكـــل طـــاغ وكيـــل
ومالطـــاغ سبيـــل لـــولا همـــا أو دليـــل[2]

يسخر "العقاد" هنا من هؤلاء الذين يركنون إلى حياة الذلة والهوان، ويعللون ذلك بشدة بأس الطغاة عليهم! فى حين أن الطاغية- فى حقيقة الأمر- لا يطغى إلا إذا وجد ضعفا واستسلاما فى الشعوب، وأكثر ما يعين الطغاة على التغلب على الشعوب أمران: الجهل، والحقد، فهذان الأمران هما أصل كل شر وبلاء، وبداية كل تخلف وضعف وتأخر.

١- ديوان العقاد ، ج٨/ ٦٥٨.
٢- الأبيات من بحر المجتث .

*وعندما يصبح التخلف والجمود من طبائع الشعب، يصبح من السهل أن يقع فريسة لغيره من الشعوب المستعمرة.

* يقول "فخرى أبو السعود" ساخرا من مظاهر الجهل والتخلف المزرى التى أعطت للمحتل الدخيل فرصة لإحكام قبضته على البلاد[1]:

ُخنى عليكم بجند من عزْئمه ومن جهالتكم جند له حشد
ْولا تفاقم هذا الجهل بينكم لم يغنه عدد فيكم ولا عدد
لا يبلغ العز قوم عن جهالتهم لا ينزعون وعن مسعاتهم قعدوا
إنا نؤومو الضحى ليست تزْيلنا أحلامنا وهو فى جنح الدجى سهد
ما دام ذا الجهل يمشى بين أظهركم ففى قضيتكم لا ينقضى فند
قد ذمكم بالذى فيكم فلا كذب فإن غلا فله من جهلكم سند[2]

"ففخرى أبو السعود" يسخر من الجهل المزرى القابض على أعناق أبناء مصر والذى اغتال آمالهم وأحلامهم، فهذا المستعمر الدخيل إنما ملك الشعب المصري، وسيطر عليه بما عنده من عزيمة قوية، وبما عند المصريين من جهل مريع كان عاملا قويا ساعد العدو، ومكن له فى البلاد.

وتكمن سخرية الشاعر من المصريين فى البيت الثالث، والذى يبدؤه الشاعر بالنفى (لا) حيث ينفى أن يكون بلوغ العز والمجد من حظ قوم لا ينزعون عن الجهل ولا يتركون الكسل والخمول.

والشاعر- هنا – يسلك معهم المسلك السهل، حيث لا يواجههم مباشرة بما يؤلمهم ولكن هو يتكلم عن مجرد (قوم) ولهم أن يفهموا المقصود.

١- ديوان فخرى أبو السعود / ١٢٦، ١٢٧.
٢- الأبيات من بحر البسيط التام .

ثم يسخر الشاعر منهم مرة أخرى فى بيته الرابع، حين يصفهم بأنهم نؤموا الضحى، فى حين أن العالم الغربى ينفق بياض الأيام وسواد الليالي، فكرا، وبحثا وتنقيبا عن أسرار الكون، واستنطاق الطبيعة.

والسخرية هنا: قائمة على المقارنة بين حالين: حال قوم لا يكفون عن النوم وحال قوم آخرين لا يكفون عن الفكر والتأمل.

والسخرية عن طريق المقارنة مؤلة ولاذعة.

* وعلى نفس هذا الدرب تبدو خطا شاعر النيل "حافظ إبراهيم" حين يعقد مقارنة بين الفتى فى الغرب والفتى فى الشرق[1]:

وانظر إلى الغربى كيف سمت به ... بين الشعوب طبيعة الكداح[2]

والله ما بلغت بنو الغرب المنى ... إلا بنيات هناك صحاح

ركبوا البحار وقد تجمد ماؤها ... والجو بين تناوح الأرواح[3]

يلقى فتيهم الزمان بهمة ... عجب وجه فى الخطوب وقاح[4]

وابن الكنانة فى الكنانة راكد ... يرنو بعين غير ذات طماح[5]

لا يستغل- كما علمت- ذكاءه ... وذكاؤه كالخاطف اللماح[6]

يسخر "حافظ" هنا من الجمود والتخلف والخمود الذى أضر بأبناء الشرق الإسلامى بعامة، وبأبناء مصر بخاصة.

١- ديوان حافظ إبراهيم / ٤١٧، ٤١٨.
٢- الكداح : المبالغة فى السعى .
٣- تناوح الأرواح: تجاوب الرياح واشتداد هبوبها من أماكن مختلفة.
٤- وجه وقاح: قليل الحياء أو مجترئ.
٥- راكد: ساكن ثابت.
٦- الأبيات من بحر الكامل التام.

وهو – هنا – يبنى سخريته على أسلوب المقارنة بين أبناء الغرب وأبناء الشرق فى مضمار الصراع مع الحياة من أجل البقاء.

والصورة التى يرسمها الشاعر – هنا – ذات جانبين:

الأول:أبناء الغرب الذين امتطوا لجة البحار، وقد تجمد ماؤها من شدة البرد والرياح تعوى وتصرخ ، وتهب من جهات مختلفة، تكاد وتهلكهم من شدة شراستها، بينما نجد قلوبهم – فى أثناء ذلك كله – كالجبال الراسية التى لا ينال منها الخوف ولا تهدهدها الكوارث.

الثاني: وهو الجانب الآخر من الصورة، يرسم ملامح أبناء مصر الهادئين الساكنين الثابتين ، وقد اثاقلوا إلى الأرض، والتصقوا بالترب، وهم فى أثناء ذلك ينظرون إلى مستقبلهم بعيون غافلة، أرهقها العجز، وأسقمها اليأس من طلب المجد.

والسخرية – هنا – مؤلمة وموجعة، لاعتمادها على أسلوب المقارنة، الذى يكشف الفروق ، ويبرز النقائص.

*ولعل إهمال الحكومة المصرية لجوانب الإصلاح فى أرض الوطن، كان أعظم إشارة على التخلف والركود الذى عانت منه البلاد.

فهذا الشاعر البائس "عبد الحميد الديب" يسخر من سوء تصريف الحكومة المصرية للشئون الاقتصادية، مما ترتب عليه انهيار اقتصاد الفرد والجماعة.يقول فى ذلك[1]:

ـوا الحكومة أو موتوا من الجوع صوت الضعيف المرجى غير مسموع
من حرموا اللحم فى يومين،هل علموا أن ليس فى حكمهم زيد لتشريع
حكومة الفقر والأيام قبلهمو على الورى حرمته ألف أسبوع[2]

١- الشاعر البائس عبد الحميد الديب/١٤٣ .
٢- الأبيات من بحر البسيط التام.

يحمل "الديب" فى هذه الأبيات على الحكومة المصرية أيام الاحتلال الإنجليزي ويسخر من سوء تصريفها للشئون الاقتصادية فى البلاد.

وتكمن سخرية الشاعر فى بيته الأول، حيث يطلب من الشعب – طلب تهكم وسخرية- أن يأكل "الحكومة"باعتبارها بديلا عن افتقاد الطعام، ذلك أن الحكومة كانت قد سنت تشريعا حرمت به أكل اللحم يومين فى الأسبوع ، مما دفع الشاعر إلى استعداء الشعوب على الحكومة، والسخرية منها، وتسميتها بحكومة الفقر.

هذه هى أهم الاتجاهات الموضوعية للسخرية الوطنية والسياسية ، خلال النصف الأول من القرن العشرين.

***اتجاهات السخرية السياسية فى النصف الثانى من القرن العشرين:**

إذا تأملنا السخرية فى النصف الثانى من القرن العشرين، فسوف نجد أنها مرت بمرحلتين زمنيتين مختلفتين أشد الاختلاف.

المرحلة الأولى: مرحلة ما بعد ثورة ١٩٥٢م:

وتبدأ من عام ١٩٥٢م إلى عام ١٩٧٠م، وقد ساد فى هذه المرحلة نظام الحكم العسكري، عن طريق مجلس قيادة الثورة، والذى كان يرأسه الرئيس الراحل "جمال عبد الناصر"[١] .

وفى هذه الفترة، نجد أن السخرية "أصبحت موجهة كأى نشاط سياسي أو إعلامى آخر، ولذلك فقدت بريقها، وحدتها، ورمحها المرحة، وكان الكتاب يعلمون تمام العلم أن من يخرج بسخريته عن الحدود المرسومة والمقننة سلفا، فليس أمامه سوى المعتقل أو الطرد أو المنع من الكتابة على أحسن الفروض.. ولذا انتقلت السخرية فى العشرين سنة الأولى من الثورة من صفحات الصحف والمجلات إلى ألسنة الناس التى كانت تردد النكات التى تسخر من جبروت قادة الثورة وفاشيتهم[٢].. لكن هذا لا يعنى أن فن السخرية اختفى من الدول المستحضرة التى قطعت أشواطا بعيدة فى مسيرتها

١- ولد عبد الناصر عام ١٩١٨م،وانتخب رئيسا للجمهورية عام ١٩٥٦م، وتوفى عام ١٩٧٠م(الأعلام، ج٢/١٣٤).

٢- الفاشي: من يتبع مذهب الفاشية، والفاشية: مذهب سياسى واقتصادى نشأ بإيطاليا فى القرن العشرين، وهو يقوم على نظام النقابات، وعلى تدخل الدولة فى كل مظاهر النشاط الاقتصادى (المعجم الوجيز/٤٧٢، ط/١٩٩٠م).

الديمقراطية، فهو فى هذه البلاد فن عذب يتميز بروح الدعابة والتهكم المرح الذى يلمح ولا يجرح ، يغمز ولا يطعن"[1]

وقد تصبح السخرية مرة ولاذعة ، إذا كانت البلاد تعانى شيئا من الديكتاتورية أو الكبت والإرهاب، وهى فى مرارتها- غالبا – ما تكون مرتدية ثياب التورية اللفظية أو مجهولة المصدر؛ فرارا من بطش الحكام وجبروتهم.

وشئ طبعى أن تختلف الاتجاهات الموضوعية للسخرية السياسية فى النصف الثانى من القرن العشرين عنها فى النصف الأول منه، حيث كان النصف الأول منه يمثل فترة غليان سياسى بسبب الاحتلال الذى كان جاثما فوق صدر الأمة، وقد سلبها حريتها وكرامتها.

أما النصف الثاني، فقد تميز بالهدوء النسبي، وخاصة بعد رحيل المستعمر عن البلاد، وإن ظلت هناك أمواج من الاستبداد السياسى التى يعانى منها واقع المجتمع المصرى فى أثناء هذه الفترة على أيدى حكام البلاد وقادتها، مما جعل الواقع واقعا مترديا فى هوة الضياع.

وقد تركزت السخرية السياسية- فى هذه الفترة – حول موضوع محدد، وتوفرت عليه، وهو "نقد الواقع المتردى بشتى صوره وأشكاله.

وقد اتضحت مظاهر هذا التردى الذى يعانى منه الواقع السياسى المعاصر فى مظهرين:

الأول: العسف السياسي:

لم تسلم أرض الكنانة على مدى تاريخها الطويل من عسف الحكام وعنتهم وشراستهم.

وتذكر المصادر التاريخية أن الديكتاتورية بدأ تدق طبولها فى مصر عقب تولى "عبد الناصر" السلطة فى البلاد، حيث بدأت رحلة مصر السوداء مع الظلم والإرهاب والمعتقلات ، ذلك أنه سخر كل وسائله للانتقام من كل من وقف فى وجهه ، فأعاد الرقابة

١-الأدب الساخر ، د/ نبيل راغب / ٣٨، ٣٩.

على الصحف، وفتح أبواب السجون والمعتقلات يسوق إليها المئات، من كل من كتب عن الحرية، أو طالب بعودة الحياة النيابية، وكل من تحدث فى أى مكان عن الديمقراطية يسوقهم إلى المعتقلات ليلقوا أفظع وأحط ألوان التعذيب والبطش[1].

وقد كانت هذه الظروف والأحداث دافعا قويا، دفع شعراء مصر إلى بث سخريتهم وتهكمهم بهذا النظام السياسى الفاسد، وإن كانوا يتجهون فى سخريتهم نحو التورية والرمز، خوفا من البطش والتشريد.

* يقول الشاعر "محمود أبو الوفا" ساخرا من الحكام المصريين الذين اتخذوا من الشعوب سلما للوصول إلى أغراضهم ومصالحهم[2]:

اليت شعرى خراف العيد هل علمت ... ماذا يكن لها عيد الضحيات؟

وليت شعرى هل تلقى الخراف غدا ... كبشا يغار على تلك الذبيحات؟

هيهات هيهات إن البهم ما خلقت ... إلا مطايا لأغراض الزعامات[3]

الشاعر "محمود أبو الوفا" يسخر فى هذه الأبيات من قادة الأمة وزعمائها من أصحاب الأغراض، ولكنه يرمز فى سخريته، وينحو منحى الكناية الخفية؛ لأن المقصود بالخراف: الناس، والمقصود بالكباش :الزعماء المدافعون عن الحقوق.

والسخرية – هنا – تدل دلالة واضحة على تخاذل القادة والزعماء، وعدم ذودهم عن رعيتهم، بل استغلالها وتسخيرها من أجل تحقيق الأطماع والمصالح الشخصية، وهذا لون من ألوان الظلم والعسف الذى يستخدمه القادة مع الشعوب المقهورة.

*وفى ظل هذه الأطماع، يصبح الحفاظ على الكرى هو الغاية، وتصبح الديكتاتورية هى أساس الحكم ، ضمانا لتكميم الأفواه

١- راجع: جراح مصر، مجدى الشهاوى،/٤٧ .

٢- محمود أبو الوفا – دواوين شعره ودراسات بأقلام معاصريه /٨٩ .

٣- البهم: جمع بهمة، وهى الصغيرة من الضأن، والأبيات من البسيط التام.

*يقول الشاعر الدكتور"يوسف القرضاوى"[1]ساخرا من إتصاف الزعامة السياسية بالفساد، حين ركنت إلى هواها، واتخذت من رأيها سيفا تضرب به رقاب المعارضين[2]:

الشعب يعبد قوادا تضلله ... كما يضلل ذو الأفلاس صبيانا

والحاكمون غدا الكرسى ربهم ... قدمون له الأوطان قربانا

سياسة الكل أن يبقى الورى سمكا ... وأن يكونوا هموفى البحر حيتانا[3]

فالشاعر "يوسف القرضاوى" يسخر – فى هذا النص – من قواد الأمة، الذين لم يحرصوا على منفعة شعوبهم، ولم يكونوا صادقين فى العمل لصالح الرعية، وإنما راحوا يتفننون فى تضليل الشعوب كما يضلل المفلس الصبى الصغير بالحيلة والخداع حتى يفلت من قديم شئ له.

فالحاكم لا يعنيه شئ – فى نظر الشاعر – سوى الكرسى الذى يجلس عليه أما الوطن، فإنه قربان يقدمه من أجل البقاء فى منصبه.

والسخرية – هنا – تكشف عن روح الأنانية والقسوة التى غلفت قلوب الحكام وطمست أبصارهم، حتى فقدوا الولاء لأوطانهم فى ظل الجرى وراء الهوى والشهوات.

وفى فترة السبعينيات ، نجد السياسة المصرية قد غرست بذور الخوف فى نفوس الشعب، واغتالت أسباب الطمأنينة فى حركة الناس، فقد سهرت أعين الرقباء فى حالات من الرصد المتتابع لأفعال الناس وأقوالهم، وملاحقة أسرارهم وعوراتهم داخل البيوت

١- هو يوسف عبد الله القرضاوى ، ولد فى قرية "صفط تراب" بالمحلة الكبرى، بمحافظة الغربية عام ١٩٢٦م ، حفظ القرآن فى صباه، والتحق بالأزهر الشريف، وظل به حتى تخرج فى كلية أصول الدين فى القاهرة عام ٥٢-١٩٥٣م، وقد واصل دراسته حتى حصل على الدكتوراة، وله مؤلفات كثيرة، وله ديوان شعري، وهو "نفحات ولفحات" والشاعر يعيش الآن فى دولة قطر.

(ينظر فى الترجمة : ديوان نفحات ولفحات/١١، وما بعدها، الطبعة الأولى، دار الضياء للنشر والتوزيع ١٩٨٥-الأردن – عمان).

٢- نفحات ولفحات/٤٩ .

٣- الأبيات من بحر البسيط التام.

وخارجها، حتى خشى فريق من أبناء المجتمع أن تكون للجدران آذان تسمع، وأجهزة تحصى أفعال العباد فى المخادع، وخلف الأبواب المغلقة.

وفى مشاركة جادة للشعر الحر، نجد شاعر الأزهر الدكتور/محمد أحمد العزب[1] يسخر من هذه السياسة، وذلك من خلال قصيدته "اعترافات المخبر العصرى" والتى يقول فيها[2]:

- نعم.
- آت من الغابات.
- منفى إلى الغابات!!
- أفتش فى مخادعكم عن البسمات!!
- أراقب أن يدوخ الضوء فى شرفاتكم ليلا..
- وأستدنى صدى الكلمات!!
- أقول لطفلة البواب.
- "يا أحلى وأجمل طفلة فى الأرض"!!
- وأسألها:
- عن الجدران ..والأسوار.. والأبواب!!
- وأسألها:
- عن الأسماء.. والألقاب !!
- وأقسم..
- لو أطيق..

١- ولد الشاعر محمد أحمد العزب عام ١٩٣٢م فى قرية من قرى ريفنا المصري، أى قبل عشرين عاما من مولد الثورة، تعلم فى الأزهر جامعا وجامعة، حتى صار أستاذا للأدب والنقد، وله "الأعمال الشعرية" التى تشمل شعره ما بين عامى ١٩٥٨- ١٩٩٤م، طبعت الطبعة الأولى منها عام ١٩٩٥م، وهى تحتوى على ستة دواوين ، وهو ينظم الشعر الحر كثيرا، ويجيد نظمه. (ينظر فى الترجمة: الغزل عند شعراء الأزهر فى العصر الحديث، د. محمد محمد بظاظو/٦١،(رسالة دكتوراة بكلية اللغة العربية بإيتاى البارود).

٢- الأعمال الشعرية الكاملة/٣٥٦، ٣٥٧، الطبعة الولى ١٩٩٥م.

- سألت ..
- عما تحمل الأصلاب!! [1]

وتبدو سخرية العزب – هنا – واضحة من السياسة المعاصرة، حين يتتبع الدور الذى يقوم به هذا المخبر العصرى من التحرى والترقب لأحوال الناس.

وتكمن السخرية اللاذعة- هنا – فى قوله:

أفتش فى مخادعكم عن البسمات!!

وهى كناية عن التحرى الكامل، والتسمع الشامل لكل ما يدور داخل المنازل، حتى ولو كان حديثا بين المرء ونفسه.

كما تكمن السخرية – أيضا- فى قوله:

- وأقسم ..
- لو أطيق ..
- سألت..
- عما تحمل الأصلاب!!

والسخرية – هنا- تكشف عن ظاهرة التتبع التى يستخدمها هذا المخبر العصري حين يسأل حراس العمارات أو أطفالهم – أحيانا – عن الأسماء والألقاب حتى إنه ليكاد يسألهم عما تخفيه الأصلاب.

والسخرية – هنا – تجسد شراسة المراقبة والمتابعة السياسية التى فرضت على الشعب، حتى عدت عليه الكلمات، والأفعال ، والأنفاس.

ولأن السياسة المعاصرة تنتهج منهجا تعسفيا، فقد سيطرت أشباح الخوف على أبناء الشعب على كافة المستويات، وصارت تطاردهم فى الشوارع، وفى أماكن العمل وفى البيوت، حتى أمسى كل واحد وهو يخشى على نفسه الغارة.

١- القصيدة من بحر الوافر التام .

وفى الإشارة إلى هذا المضمون نجد قول "العزب" الذى يسخر فيه من سياسة التنكيل والإرهاب التى جعلت شبح الخوف يسيطر على قلوب الشعب بأكمله يقول من قصيدته "قراءة فى أبجدية الخوف من الخوف"[1].

- نحن محكومون بالخوف..
- جبنا...
- وانكفأنا..
- وتبادلنا الهجائيات..
- لكنا كتبنا فيه آلاف التواشيح وآلاف المدائح !!
- نحن أهديناه للأطفال..
- قمصانا .. وحلوى .. وحقائب !!
- وارتضيناه لنا فى قاعة البحث رسالة!!
- نحن لا نملك إلا أن نجيده !!
- نحن لا نملك من شئ حياله !![2].

فالشاعر – هنا – يسخر من الواقع السياسى البغيض، الذى خلق الخوف فى كل النفوس، حتى أصبح شبح الخوف هو الحاكم والمسيطر على الشعب، فنحن محكومون بالخوف لا بالحكام والقادة.

والسخرية هنا تدل على المعاناة القاسية التى لحقت الشعب بسبب ظلم الحكام وجبروتهم وهى تكشف عن حالة الضغط النفسى التى لحقت كل فرد فى المجتمع، دون أن تكون هناك باعثة من غضب ترفض هذا الواقع أو تثور عليه مما اضطر الشعراء إلى السخرية وتوجيه النقد اللاذع.

١- الأعمال الشعرية الكاملة/٤٤٢ .
٢- القصيدة من بحر الرمل(فاعلاتن).

*وعلى نفس هذا الدرب تبدو خطا الشاعر "أحمد عبد المعطى حجازى"[1]. الذى يقول ساخرا من الواقع السياسى القائم على سياسة القهر، وكبت الحريات، وتكميم الأفواه وذلك من قصيدته "سافر أبدا"[2]:

- أدفع رأسى ثمنا لكلمة أقولها!
- لضحكة أطلقها..
- أو ابتسامة..
- أسافر الليلة فجأة..
- ولا أرجو السلامة !
- أعبر تحت الناطحات .. تحت ظل المركبات..
- بما تبقى فى فؤادى من ثبات!
- وفى خيالى من وسامة!
- أمسح هذه المناظر المقامة ..
- حتى يلوح مأمنى فى القاع..
- رطبا متكسر الشعاع !
- ويصهل الجواد عالكا لجامه !![3].

فالشاعر – هنا – يتهكم بالواقع السياسى المعاصر، الذى ألهب ظهور الشعب واغتال حرياته، وأطفأ نور الكلمة الجريئة فى الأفواه؛ وذلك بسبب طغيان بعض الحكام، هؤلاء "الذين أخضعوا الدنيا لسلطانهم بسيف القهر والإرهاب، وفرضوا على شعوبهم نماذج معدة

١- ولد الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى عام ١٩٣٥م فى مركز تلا، بمحافظة المنوفية لوالد ميسور الحال، ولعا باقتناء الكتب، ولا سيما دواوين الشعراء القدامى والمحدثين، فنشأ محبا للعلم والأدب، وتأثر بالاتجاهات التى تدعو إلى الحرية فى العالم المعاصر، وله شعر كثير، ومنه: ديوان مدينة بلا قلب ١٩٥٨م ، ولم يبق إلا الاعتراف سنة ١٩٦٥م، ومرثية العمر الجميل ١٩٧٣م. (ينظر فى الترجمة: من الأدب المقارن، نجيب العقيقي، الجزء الثاني/١١٥، الطبعة الثالثة، مكتبة الانجلو المصرية – القاهرة ١٩٧٦م).

٢- الأعمال الشعرية الكاملة/٣٣٥ ، ٣٣٦ .

٣- القصيدة من بحر الرجز (مستفعلن).

سلفا للحكم أو التوجية، على ضوء ما أمنوا به من مذاهب وتيارات، لا تتناسب مع الأصالة الإسلامية، ولا تلتقى مع الإيمان فى طريق ، فكان أن تحولت الشعوب – بسلطان القهر- إلى حقول تجارب لتيارات الشرق والغرب على غير رضا من جماعة المثقفين الإسلاميين الذى يمثلون النخبة الفكرية،ورموز الوعى الناضج فى وجدان الأمة، ولأنهم يتعاملونبالكلمة معبرين بها عن توجهات الحياة، وما تموج به من فساد جاء مترتبا على تلك التوجهات السياسية التى ينتجها أصحاب السلطة.. قوبلوا بالقهر، وقيدوا بالأغلال والبطش؛ ضمانا لإخماد صوتهم،وإلغاء وجودهم الفاعل فى الحياة"[1] .

وتكمن سخرية الشاعر من فساد النظام السياسى المعاصر فى قوله:

- أدفع رأسى ثمنا لكلمة أقولها !
- لضحكة أطلقها.
- أو ابتسامة !!

فالعقاب على النطق بكلمة الحق فى السياسة المعاصرة هو قطع الرأس، وإنهاء الحياة، ولذا أمسك الناس عن كل شئ خوفا من العقاب، حتى إنهم أمسكوا عن الضحك والابتسام !!

والسخرية – هنا – تدل على رفض هذا النهج السياسى المتعسف، لما فيه من جبر وقهر وسلب للحريات، وقتل للآمال.

*وقد جاء على هذا النحو قول الشاعر "أمل دنقل"[2] ساخرا من الواقع السياسى المر الذى كبت الحريات، وفرض الصمت على أصحاب الكلمة والرأى، وذلك من قصيدته "كلمات سبارتكوس الأخيرة سنة ١٩٦٢م"[1] .

١- صوت الإسلام فى الشعر العربى المعاصر فى مصر ، د/صفوت زيد،/١٣٤، التركى للكمبيوتر وطباعة الأوفست طنطا١٩٩٦م.

٢- أمل دنقل، ولد بقنا إحدى محافظات الصعيد وذلك فى عام ١٩٤٠م ، يعد من أبرز شعراء الجيل الثانى بمدرسة الشعر الحر، له ستة دواوين شعرية جمعت فى مجلد واحد صدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٨م (ينظر مجلة إبداع ص١٠، أكتوبر ١٩٨٣م).

- معلق أنا على مشانق الصباح.
- وجبهتى بالموت محنية !
- لاننى لم أحنها حية !
- لأن من يقول (لا) لا يرتوى إلا من الدموع !
- فلترفعوا عيونكم للتاثر المشنوق.
- فسوق تنتهون مثله غدا.
- وقبلوا زوجاتكم .. هنا .. على قارعة الطريق.
- فسوق تنتهون هاهنا غدا.
- فالانحناء مر ..
- والعنكبوت فوق أعناق الرجال ينسج الردى.
- فقبلوا زوجاتكم .. إنى تركت زوجتى بلا وداع.
- وإن رأيتم طفلى الذى تركته على ذراعها بلا ذراع.
- فعلموه الانحناء !
- علموه الانحناء !
- الله لم يغفر خطيئة الشيطان حين قال: لا![٢].

فالشاعر فى قصيدته يسخر من الفساد السياسى المعاصر الذى حجر على الآراء وصادر الكلمات الجريئة فى الأفواه ، وقابل أصحابها بالقمع والشدة والجبروت.

وتكمن سخرية الشاعر – هنا – فى وصف أصحاب الكلمة الحرة الجريئة، الذين يقولون (لا) ، بأنهم لا يرتوين إلا من الدموع؛ نتيجة لما ينزل بهم من العقاب والنكال بسبب إقدامهم هذا.

١- الأعمال الكاملة ، تقديم د/جابر عصفور/١١٦، ١١٧، ١١٨، ط/الهيئة العامة لقصور الثقافة، شركة الأمل للطباعة والنشر ١٩٩٨م.
٢- القصيدة من بحر الرجز.

كما تكمن السخرية اللاذعة فى طلب الشاعر من المخاطبين إذا رأوا طفله – الذى تركه على ذراع أمه يعانى آلام فقدان الوالد بسبب قول (لا) – أن يعلموه لغة الانحناء ، لعله ينجو من عسف السياسة المعاصرة الظالمة.

والسخرية هنا تدل على بلوغ السياسة المعاصرة حدا لا يطاق فى الظلم والعسف كما تدل – فى نفس الوقت –على عجز الحكام عن توفير جو سياسى ملائم لشعوبهم.

* ويتبارى الشاعر "صلاح عبد الصبور"[1] مع الشعراء السابقين فى نقد هذا الواقع السياسى المتردى حين يقول[2]:

لا ، لا تنطق الكلمة !!

- دعها بجوف الصدر منبهمة
- دعها مغمغمة على الحلق
- دعها ممزقة على الشدق
- دعها مقطعة الأوصال مرمية
- لا تجمع الكلمة...
- لا تلق نبض الروح فى كلمة !

فالشاعر –هنا–يسخر من ذلك الواقع السياسي، الذى حرم على الناس الكلام.

وتتجسد السخرية فى هذا النص من خلال النهى المؤكد الوارد فى السطر الأول والذى ينصح الناس بالصمت، حتى لا تضيعهم الكلمات ! فالنطق بالكلمات يعطيها حركة ولونا وريحا ، وهذا ما ترفضه السياسة المعاصرة.

وفرض الصمت على الأفواه – بهذا المنطق – من شأنه أن يضطر الشعراء إلى السخرية، ولو بطريق خفي؛ تنفيسا عن أنفسهم، وإشعارا لها بنوع من الانتصار!

١- ولد الشاعر صلاح عبد الصبور عام ١٩٣١م، وتوفى عام١٩٨١م، وهو من رواد حركة الشعر الحر، وله عدة دواوين ، منها: الناس فى بلادى ، وشجر الليل، والإبحار فى الذاكرة.(انظر: صلاح عبد الصبور الإنسان والشاعر، نشأت المصري١٧١، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب)

٢- (ديوان أقول لكم/٣٨، ٣٩ ، منشورات مكتبة مدبولي- القاهرة "بحر الرجز".

*وحين تفرض السلطة حصارا على الكلمة الصريحة، يضطر الشعراء إلى اللجوء إلى لون من التعمية والرمز والإيحاء، وهذا الفعل فى حد ذاته يعد سخرية من واقع السياسة؛ لأنها لم تترك للأدباء مساحة من الحرية يعبرون من خلالها عما يعتمل فى نفوسهم.

يقول الشاعر "أحمد سويلم" [1]:ساخرا ومعبرا عن هذا الاتجاه[2].

- هذا أوان التعارف بالرمز.
- هذا أوان التعلق بالدمع..
- هذا أوان الترشق فوق خيوط من الوهم..
- هذا أوان .. تنام الشفاه .. ويقطع فيه اللسان من الحلق
- يقفز من غور القلب..
- يركض..
- يركب فى الليل أى القطارات..
- أى المراكب..

ولعل أبرز ما تكون السخرية فى هذا النص، هو ما يبدو فى السطر الشعرى الرابع حين يجعل الشاعر تلك المرحلة الزمنية أوانا لنوم الشفاء عن الحركة، وحين يجعلها- أيضا – أوانا لقطع الألسنة من الأفواه، حيث لم تعد للشفاه، ولا للسان وظيفة فى هذا الزمن.

وهى سخرية مؤلمة، وفيها كثير من المكر والدهاء والإيحاء والرمز.

*ويقول الشاعر "عبد المنعم عواد"[3] ساخرا من الواقع السياسى البغيض الذى يحاول إجبار الناس على التعامى والتغابى والبلادة، وذلك من قصيدته "هاملت يموت أبدا" [1].

١- ولد الشاعر أحمد سويلم فى مركز بيلا – كفر الشيخ فى عام ١٩٤٢م ، حصل على بكالوريوس التجارة عام ١٩٦٦م، وهو من رواد الشعر الحر، وله عدة دواوين ، منها: الطريق إلى القلب، والليل وذاكرة الأوراق (ديوان صرخات تحت قبة الأقصى/١٠٣ وما بعدها).

٢- ديوان الليل وذاكرة الأوراق /٢٧ ، مكتبة مدبولي، دار مأمون للطباعة – القاهرة١٩٣٧م.

٣- ولد الشاعر عبد المنعم عواد يوسف فى الثامن والعشرين من أغسطس ١٩٣٣م بقرية شبين القناطر قليوبية، تخرج فى كلية الآداب قسم اللغة العربية عام ١٩٥٦م، له مجموعة دواوين شعرية منها "عناق الشمس" هكذا غنى

- أسير فى الطريق مغمض العينين..
- أودع التفكير عند باب دارنا..
- وأترك الشعور فى سكون منزلى الصغير..
- يا ويله من كان واسع العينين فى زماننا..
- يا ويلة من كان نابها ذكيا !!
- يا ويله من كان مرهف الشعور.
- طوبى لأعمى ذلك الزمان !!
- طوبى لأغبياء عصرنا!!
- طوبى لكل ميت الشعور!! (٢).

يسخر الشاعر – هنا – من الواقع السياسى المتعسف فى المجتمع المصري الذى أرهب الناس، وألهب ظهورهم، وجعل أشباح الخوف والقلق تتسلل إلى نفوسهم؛ بسبب لجوء الحكام إلى استخدام سياسة القمع والشدة، وكبت الحريات، وتكميم الأفواه.

وهذا النص يفيض بروح السخرية والتهكم، ولعل أوضح ما تكون السخرية فيه ما جاء فى السطر الرابع من قول الشاعر:

يا ويله من كان واسع العينين فى زماننا..

والتعبير باتساع العينين كناية عن رؤية عيوب المجتمع ونقائصه، والويل لمن رأى ذلك أو تكلم عنه.

كم تكمن السخرية فى إخبار الشاعر بأن الجنة "طوبى" مضمونة لكل أعمى ولكل غبى ولكل ميت الشعور فى هذا الزمان.

السندباد" (ينظر عبد المنعم عواد يوسف حياته وشعره، لأحمد عبد المطلب المراوى ص٢ وما بعدها، رسالة ماجستير فى كلية اللغة العربية فى إيتاى البارود ٢٠٠م.

١- الأعمال الكاملة، ج٢/٤٩٤ ، ٤٩٥ .

٢- القصيدة من بحر الرجز.

والسخرية هنا تدل دلالة واضحة على التردى الذى يعانى منه الواقع السياسى المعاصر، وما يشوبه من فوضى وتخبط.

وفى زحام هذه المتناقضات السياسية، يفقد الناس حريتهم الحركية والفكرية مما يجعل الموقف أشد تأزما .

*يقول الشاعر "محمد أحمد العزب" ساخرا من هذا الواقع السياسى الذى عايشته البلاد فى السبعينيات ، والذى طغى على عدالة الحكم، وحرم الناس من الحرية.. حتى حرية التفكير والتأمل ، من قصيدة له بعنوان: "مشهد جانبى من محاكمة عصرية"[1] .

- هذا المتهم الماثل خلف القضبان !!
- متهم .. بالشغب الفكرى !!
- متهم .. بالتجديف !!
- ومتهم .. بالإيمان !!

خطبة المدعى العام

- هذا المجنون.
- يبكي..
- باسم الحرية !!
- لا باسم القانون !!

النطق بالحكم

- باسم القانون !!
- وباسم العدل!!
- نصدر فى المتهم الشاغب..
- حكما ..

١- الأعمال الشعرية الكاملة/٣٧٥ ــ ٣٧٨ .

- بالقتل !! [1]

يسخر "العزب" هنا من السياسة المعاصرة وتعسفها، وذلك من خلال استغلاله لمشهد من المشاهد التى تحدث فى المحاكم العصرية، ثم العمل على تعريته؛ ليكون شاهدا على فساد هذه السياسة، وإبراز مواطن العجز فيها.

وتكمن السخرية – هنا – فى نوع التهمة المسندة إلى هذا المتهم، ما عساها أن تكون؟ إنها تهمة "الشغب الفكرى" وتهمة "الكلام عن الحرية"، وتتصاعد السخرية أكثر بعد أن يعرف القارئ الحكم الذى أصدرته المحكمة ضد هذا المتهم إنه الحكم بالقتل !! وما أشد جور هذا الحكم.

وتدل السخرية – هنا – على عسف الواقع السياسى المعاصر، وطغيانه على روح العدالة، وحجره على حرية الفكر، مما يجعله نظاما سياسيا فاسدا، لا تستقيم به حياة.

ولا يزال النظام السياسى يطغى على حرية الناس، ويكتم أنفاسهم، حتى خيل إليهم أن الحرية قد ماتت فى هذا الزمن.

يقول الشاعر "محمد إبراهيم أبو سنة"[2] ساخرا من زمن تغتال فيه الحريات[3]:

-يسألنى السائح
عن أقدم قبر لعظيم
يبين مقابرك الشاهقة البنيان
والتفتت نحوى غابات التاريخ
كانت لافتة تومض فى قلب الليل
تصرخ فوق ضريح

١-القصيدة من بحر الرجز .

٢- ولد الشاعر محمد أبو سنة عام ١٩٣٧م فى قرية من قرى مركز الصف بالجيزة ، وهو من الشعراء البارزين فى شعراء الجيل الثانى من مدرسة الشعر الحر، صدرت له عدة دواوين شعرية، منها: البحر موعدنا، وأجراس المساء (ينظر: ديوان تأملات فى المدن الحجرية /٩ وما بعدها، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م).

٣- تأملات فى المدن الحجرية/٢٨، ٢٩ ، "الرجز"

هذا قبر الحرية !!

والبعض كله تعبير عن حرمان الناس من الحرية ، وتعطشهم إليها فى ظل ظروف سياسية عنيفة لا تعترف بحرية الأفراد .

والغريب حقا أن الشعب رغم هذه الأثقال التى ترهقه هو الذى يتحمل كل الأعباء والمشقات فى أوقات المحن و الكوارث ، بينما الحكام و السراة يفرون من الميدان ، ويتركون الشعوب على قارعة الطريق تعانى الآلام وحدها .

*يقول الشاعر " أمل دنقل" ساخرا و مشيرا إلى هذا الوضع السياسى البغيض الذى يؤدى بدوره إلى افتقاد الشعب ثقته بحكامه و قادته ، وذلك من خلال قصيدته " البكاء بين زرقاء اليمامة " [1]:

يسألنى السائح

- عن أقدم قبر لعظيم
- بين مقابرك الشاهقة البنيان
- والتفتت نحوى غابات التاريخ
- كانت لافتة تومض فى قلب الليل
- تصرخ فوق ضريح
- هذا قبر الحرية !!

والنص كله تعبير عن حرمان الناس من الحرية، وتعطشهم إليها، فى ظل ظروف سياسية عنيفة لا تعترف بحرية الأفراد.

والغريب حقا، أن الشعب رغم هذه الأثقال التى ترهقه هو الذى يتحمل كل الأعباء والمشقات فى أوقات المحن والكوارث، بينما الحكام والسراة يفرون من الميدان ويتركون الشعوب على قارعة الطريق تعانى الآلام وحدها.

١- الأعمال الكاملة /١٢٨، ١٢٩.

*يقول الشاعر "أمل دنقل" ساخرا ومشيرا إلى هذا الوضع السياسى البغيض، الذى يؤدى بدوره إلى افتقاد الشعب ثقته بحكامه وقادته، وذلك من خلال قصيدته "البكاء بين يدى زرقاء اليمامة"[1] :

- أيتها النبية المقدسة..
- لا تسكتى .. فقد سكت سنة فسنة..
- لكى أنال فضلة الأمان.
- قيل لي: "اخرسن"..
- فخرست .. وعميت .. وائتممت بالخصيان !
- ظللت فى عبيد (عبس) أحرس القطعان.
- أجتز صوفها..
- أرد نوقها..
- أنام فى حظائر النسيان.
- طعامي: الكسرة .. والماء .. وبعض التمرات اليابسة.
- وها أنا فى ساعة الطعان
- ساعة أن تخاذل الكماة .. والرماة.. والفرسان.
- دعيت للميدان !
- أنا الذى ما ذقت لحم الضأن ..
- أنا الذى لا حول لى أو شأن..
- أنا الذى أقصيت عن مجالس الفتيان.
- أدعى إلى الموت .. ولم أدع إلى المجالسة !![2].

١- الأعمال الكاملة /١٢٨، ١٢٩ .
٢- القصيدة من بحر الرجز.

يسخر الشاعر "أمل دنقل" هنا، من أثرة الحكام وأنانيتهم ، حين ينعمون بكل الخيرات والنعم، بينما الشعب يعيش حياة الشظف والمذلة، ومع ذلك فهو الذى يتحمل كل التبعات والتضحيات إذا ما دهم الوطن خطر أو تهديد.

وقد لجأ الشاعر فى سخريته – هنا – إلى استخدام الرمز بدقة متناهية فعنترة العبسى – رمز للشعب المطحون تحت وطأة الأسياد والحكام، أما فتيان عبس وأسيادها فهم رموز للحكام والقادة المترفين، فالشاعر "لا يتحدث عن عنترة وإنما يتحدث من خلاله ولا يعبر عن هذا البعد من أبعاد شخصيته، وإنما يعبر به عن جانب من جوانب تجربته هو المعاصرة[1].

والسخرية – هنا – تكشف عن علاقة الحكام بالمحكومين فى بعض عهود السياسة المعاصرة فى مصر، وهى علاقة قائمة على النفعية المطلقة، التى تؤدى بدورها إلى امتصاص دماء الشعب، من أجل تحقيق هالة من المجد الزائف للقادة والزعماء.

لأجل ذلك، فقد الشعب ثقته بحكامه وقادته السياسيين، ولا سيما بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧م التى عكرت صفو الحياة، وقتلت فى النفوس إشراقة الأمل- يقول "العزب" ساخرا من القيادة السياسية بعد هزيمة ١٩٦٧م من قصيدته "شاهد العصر" [2]:

- سيداتى .. سادتي.
- وتقولون لمن ؟
- الولاءات لمن ؟
- أنا فيكم شاهد العصر الذى ينحل فى ليل العفن !!
- قائل قولي.. وماض للرياح ..
- حاملا سيفى .. وحرفى .. وطعامى والكفن !!

١- استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر، د. على عشرى زايد /٧٠، دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٩٧م.

٢- الأعمال الشعرية الكاملة/٥٢٧ .

- إن سألتم الولاءات لمن ؟
- سامحونا ٠٠ إن أجبنا : ليس فى هذا الزمن !!![1]٠

"فالعزب" – فى هذا النص – يسخر من القادة العسكريين، الذين فقد الشعب ثقته بهم فى بعض فترات التمزق النفسى التى مر بها الشعب المصرى بعد الهزيمة٠

وتكمن سخرية الشاعر: فى نفيه أن يكون هناك أحد يستحق الولاء فى هذا الزمن، وحين يخلو المجتمع ممن يستحق نوعا ما من الولاء، فهذه سخرية قاسية تجسد فداحة التردى الذى وصل إليه حال هذا المجتمع ٠

*ومن النماذج الجميلة التى تجسد العسف السياسى الذى غشى الناس فى النصف الثانى من القرن العشرين: قول الشاعر "محمد إبراهيم أبو سنة" ساخرا من افتقاد الناس للحرية فى زمن تغتال فيه الحريات[2]:

- يسألنى السائح:
- عن أقدم قبر لعظيم٠٠
- بين مقابرك الشاهقة البنيان٠
- والتفتت نحوى غابات التاريخ
- كانت لافتة تومض فى قلب الليل،
- تصرخ فوق ضريح:
- هذا قبر الحرية !!

يسخر الشاعر – هنا – من سؤال السائل الذى يسأل عن أقدم قبر لعظيم فى مصر! وتبدو سخريته حين يجيبه عن سؤاله بغير المتوقع أو المطلوب؛ إشعارا بأن ذلك هو ما ينبغى السؤال عنه٠

١- القصيدة من بحر الرمل (فاعلاتن)٠
٢- تأملات فى المدن الحجرية/٢٨، ٢٩ ، "الرجز"٠

وفى ذلك سخرية لاذعة تجسد مرارة الواقع السياسى ، وحبسه لحرية الشعوب..

*ومنه قول الشاعر "صلاح عبد الصبور" ساخرا من سياسة كبت الحريات، وتكميم الأفواه التى أغرقت الناس فى النصف الثانى من القرن العشرين[1]:

- لا، لا تنطق الكلمة !
- دعها بجوف الصدر منبهمة
- دعها مغمغمة على الحلق
- دعها ممزقة على الشدق..
- دعها مقطعة الأوصال مرمية!
- لا تجمع الكلمة..
- دعها رمادية !
- فاللون فى الكلمات ضيعنا !
- دعها غمامية"
- فالخصب شردنا وجوعنا
- دعها سديمية..
- فالشكل فى الكلمات توهنا !
- دعها ترابية
- لا تلق نبض الروح فى كلمة.

يسخر الشاعر فى هذا النص من الاستبداد السياسى الذى يحاسب الناس على الكلمات، ويعاقبهم على الابتسامات.

والشاعر- هنا – يلح فى طلب الصمت، وعدم النطق بالكلمة، لأنها قد تحمل له ما يسوءه ويضره.

١- أقول لكم/٣٨، ٣٩ ، منشورات مكتبة مدبولى القاهرة، "الرجز".

وهذا الإلحاح يعكس عنف السياسة وشدة تنكيلها بالناس عندما ينفسون عن أنفسهم حتى بمجرد الكلمة!

*ومنه قول الشاعر "بدر توفيق"[1] ساخرا من السياسة المعاصرة التى ضربت على الأفواه بيد من حديد[2] :

- تقتلنى كلمة !
- تبعثنى كلمة !
- تجملى يا وحدتي
- رحلتنا الليلة فى نهر الضباب
- كان العذاب مطهرا
- كان البكاء مطهرا
- ومطهرا كان العقاب !

يسخر الشاعر – فى هذه السطور الشعرية – من الواقع السياسى المتردى فى المجتمع المصرى فى النصف الثانى من القرن العشرين.

وتبدو السخرية من خلال المطابقة بين كلمتى (تقتلني، وتبعثني) اللتين تصوران خطورة الكلمة من حيث الثواب والعقاب، وبالنظر نجد الشاعر يتخير لفظى (القتل والبعث) وينتزعهما من مقامهما الأصلي، ويستعملها فى مقام بعيدا لماسبة عن المقام الأصلى، وكان الواقع السياسى البغيض هو الذى اضطر الشاعر إلى اللجوء إلى هذا الصنيع سخرية وتهكما بواقعه السياسى المتعسف.

١- ولد بدر توفيق عام ١٩٣٤م، ونشأ فى بيت زاخر بكتب الأدب العربى والأجنبى ، حصل على الثانوية العامة عامة ١٩٥٢م، ثم التحق بالكلية الحربية، وتخرج ضابطا فى سلاح المشاة عام ١٩٥٥م وشارك فى حرب يونيو ١٩٦٧م، وأحيل بعدها إلى التقاعد، وله أعمال شعرية كثيرة منها: إيقاع الأجراس الصدئة ١٩٦٥م، وقيامة الزمن المفقود ١٩٦٨م. (ينظر: ديوان أتشكل فى صور خارقة /٩ وما بعدها).

٢- ديوان قيامة الزمن المفقود/٣٠ ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٧م، "الرجز".

- ونظرا لسياسة الصمت التى فرضت على الأفواه فرضا، وجدنا الشعراء المصريين فى النصف الثاني، يحاولون التفاهم مع غيرهم، وبث أفكارهم عن طريق الرمز والإلغاز.

يقول الشاعر "أحمد سويلم" ساخرا من سياسة تكميم الأفواه :

- هذا أوان التعارف بالرمز!
- هذا أوان التعلق بالدمع !
- هذا أوان الترشق فوق خيوط من الوهم..
- هذا أوان.. تنام الشفاه.. ويقطع فيه اللسان من الحاق
- يقفز من غور القلب..
- يركض..
- يركب فى الليل أى القطارات"
- أى المراكب

فالشاعر- هنا- يسخر من واقع سياسى بغيض، جعل الناس يضطرون إلى الامتناع عن الكلام، ويتفاهمون عن طريق الرمز والإشارة.

وتكمن السخرية اللاذعة فى السطر الشعرى الرابع، حين يصف الشاعر تلك الفترة الزمنية بأنها ليست فى حاجة إلى شفاه أو ألسنة، فلتنم الشفاه، ولتقطع الألسنة من الحلق طالما أن الكلام محظور.

والسخرية- بهذا المنطق – تجسد عسف النظام السياسى فى تلك الفترة الزمنية تجسيدا صادقا من خلال اللغة والموقف.

* وفى ظل هذه الظروف السياسية المتعسفة ، ينتشر شبح الخوف، ويسيطر على الناس حتى وهم داخل بيوتهم.

يقول الشاعر "فوزى خضر" [1]ساخرا من سياسة الخوف التى ألزمت الناس بيوتهم[2]:

- كيف أجئ إليك الآن ؟؟
- لا يمكننى أن أخرج من بابي
- بابي...
- أغلقه السجان !

والسخرية فى هذا النص تكمن فى عدم قدرة الشاعر على تنفيذ إرادته؛ لأن إرادته مسلوبة بيد سجان عنيد.

وقد التمس الشاعر اسم "السجان" لمن يحبس حريته، ويعرقل إرادته؛ سخرا منه وكأنه بتضييقه على الناس ، صار سجانا حقيقيا !

٢.الضعف والتخاذل القابضان على الأعناق:

عاشت مصر بعد نكسة ١٩٦٧م أوقاتا مريرة ومؤلمة، شعرت خلالها بالألم النفسي والتمزق والضياع، فقد أنسدت أمامها كل نوافذ النور، واحتجب الضياء تحت سحب دقيقة من ضباب اليأس، الذى يخنق الصدور، ويقتل بواعث الأمل فى النفوس.

ومن هنا، جاء دور شعراء مصر المعاصرين، الذين نقدوا هذا الواقع المزرى وسخروا من صور الضعف التى تخنقه، طالبين بذلك التغيير، وتخطى المرحلة الصعبة، للوصول إلى الانطلاقة الأدبية التى "تفجر الحركة الإيجابية التى تنبعث بها الحياة خلقا جديدا،يموج بكل المعانى الزاخرة بالعطاء والانتماء ؛ أملا فى تحقيق حاضر آمن ومستقبل مشرق"[3] .

١- ولد فوزى خضر فى ١٩٥٠/١٢/٥م ، وهو من رواد الشعر الحر ، وله عدة دواوين منها: أغنية لسيناء ١٩٧٥م، والترحال فى زمن الغربة ١٩٨٤م، ومسافات السفر ١٩٩٦م .
(ينظر فى ترجمته: ديوانه بركان يركض /١٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢م.
٢- ديوان بركان يركض/٣٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢م ، "الرجز.
٣- صوت الإسلام فى الشعر العربى المعاصر فى مصر، د. صفوت زيد/١٨٤ .

*ويشير إلى ذلك قول "أمل دنقل" الذى يسخر فيه من مظاهر الضعف والهزيمة حين كانت بعض القوى المهزومة تحاول أن تغطى ضعفها أمام العدو فتلجأ إلى ممارسة سلطان القهر على رعاياها فى الداخل، وحين تحاول – كذلك – اختلاق الأمجاد الكاذبة من قصيدته"من مذكرات المتنبى فى مصر سنة ١٩٦٨"[١] .

- أبصر تلك الشفة المثقوبة!
- وجهه المسود، والرجولة المسلوبة.
- أبكى على العروبة !
- يومئ، يستنشدنى : أنشده عن سيفه الشجاع..
- وسيفه فى غمده.. يأكله الصدا !
- وعندما يسقط جفناه الثقيلان، وينكفئ !
- أسير مثقل الخطا فى ردهان القصر!
- أبصر أهل مصر..
- ينتظرونه.. ليرفعوا إليه المظلمات والرقاع ![٢].

يسخر الشاعر – هنا – من القادة السياسيين المعاصرين، الذين يشعرون فى داخلهم بالهزيمة والضعف، ولكنهم يحاولون تغطية ذلك – فى الظاهر – عن طريق اختلاق الأمجاد والبطولات الزائفة التى يأتى بها الشعراء لهم.

وتكمن السخرية – هنا – فى حب الحاكم للثناء والمدح، وذلك حين يطلب الحاكم (كافور الإخشيدى) من الشاعر (المتنبى) أن ينشده شعرا فى إقدامه وشجاعته، وصرامة سيفه، وانتصاراته، بينما سيفه فى الواقع موضوع فى غمده يأكله الصدأ، وتنخر فيه عوامل الإهمال والنسيان.

١- الأعمال الكاملة/٢٠١، ٢٠٢ .
٢- القصيدة من بحر الرجز.

وكافور – هنا – رمز للحاكم البعيد عن شعبه، والمتنبي: رمز لهؤلاء المتملقين الذين يمدحون الحكام، ويصنعون حولهم هالات من النور؛ طلبا للمنفعة الشخصية.

والسخرية تدل على تكلف الحكام والقادة السياسيين ما ليس لهم،باعتبار ذلك نوعا من التعويض، والهروب من أشباح النقص القابض على أعناقهم.

*ويتهكم الشاعر "عبد المنعم عواد" من واقع العصر الذى يتقاتل فيه الناس بلا سبب[1]

- أتقتلون بعضكم بلا سبب..
- وتنتقون للهيب أجود الحطب..
- وكلكم يظن نفسه محمدا..
- وكلكم أبو لهب !!
- وتدعون أنكم عرب !
- إن كان من أراهمو أمام ناظرى عرب..
- فقد كفرت بالعرب ..
- أجل ، كفرت بالعرب !! [2].

فالشاعر –هنا – يتهكم بالواقع السياسى المتمزق، بعد اشتعال الحرب اللبنانية وبعد تفرق العرب ، وابتعادهم عن مصر حين قام الرئيس الراحل "محمد أنور السادات" بمبادرة الصلح مع إسرائيل عام ١٩٧٧م.

وتكمن سخرية الشاعر من العرب، حين يعرى واقعهم المتردى فى هوة الضياع والانفلات، فكل حاكم من حكامهم يرى نفسه محمدا(صلى الله عليه وسلم) بينما هو فى واقع الأمر "أبو لهب" بما يشعله من عداوات وأحقاد وحروب.

١- الأعمال الكاملة ، ج٢/٤٨٩ .
٢- القصيدة من بحر الرجز.

وهى سخرية مؤلمة؛ لأنها مبنية على قلب وعكس مضمون المتكلم ، فبينما يظن كل واحد من الحكام أنه فى مقام محمد (صلى الله عليه وسلم) ، يخبر الشاعر أنه ليس كذلك بل هو فى مقام أبى لهب، وهى مفاجأة مؤلمة.

*وأمام الشعور المؤلم بالهزيمة والانكسار تصاب الهمم بالفتور والضعف، مما يكون باعثا على السخرية والنقد اللاذع.

*يقول الشاعر الدكتور "محمد العزب" ساخرا من مظاهر الضعف والتخاذل مثل فتور الهمم التى يعانى منها الشعب المصري.

يقول على لسان "الشهيد" منه قصيدته "الشهيد" [1]:

- بدى على جدار بيتكم قمر!!
- معفر الجبين.. أخلق الثياب.. شارد النظر!!
- يبحث فى وجوهكم عن لحظة انفعال..
- ويستريح فى مخادع الخطر.
- الرقص فى مهاجر المشردين ما يزال !!
- والموعد المضروب بين عاشقين ما يزال!!
- وأغنياتكم على الأثير تجرح العيون..
- أهكذا يفكر الرجال ؟؟
- أهكذا يفكر الرجال؟؟
- دمى يزيدكم مساء كل يوم !!
- يجول فى شوارع المدائن المحنطة !!
- يحط فوق أسطح البيوت !!

١- الأعمال الشعرية الكاملة/٥٥٣ .

- يصيح للذين يسألون فى غباء !!
- وللذين يجشأون بالإجابة المنمقة !!
- كما تركتكم .. لقيتكم ..
- دمى .. غبية .. تجبلها المطارق المسلطة!! (١).

يسخر "العزب" – هنا – من ملامح الضعف والتخاذل التى يعانى منها الصف العربي، فقد فترت همته، وقعد عن الأخذ بالثأر من ظالمه وسالبه حقوقه.

فهو يتحدث على لسان هذا الشهيد، الذى أخذ ينظر إلى الوجوه ويتفرسها لعله يجد فيها باعثة من نخوة ، أو إشراقة من تمرد أو انفعال على هذا الواقع المتردى ولكنه لم يجد سوى الغناء.. والرقص.. والفكر العليل، الذى لا يصح أن يصدر من رجال يحملون على أكتافهم عبء حماية الوطن.

وتكمن السخرية منهم، فى أن هذا الشهيد رماهم بالضعف والتخاذل فحقوقهم مسلوبة، وكرامتهم مهانة، ومع ذلك لم تتحرك فى دمائهم لحظة من انفعال، أو بارقة من عصيان، وهذا يعنى أنهم متصفون بالبلادة، وجمود الإحساس.

كما تكمن السخرية: فى وصف الشهيد لهم بأنهم "دمي" بما تحمله هذه الكلمة من معانى الامتهان ، والتبعية للآخرين فى صورة مبتذلة.

*وقد استعمل الشاعر هنا الرمز، من خلال استدعائه لشخصية الشهيد، والتحدث من خلالها.

*وأخيرا – فى هذا الجانب – نجد قول "أمل دنقل" ساخرا من سياسة فن الكلام التى يحترفها القادة السياسيون؛ لتخدير أعصاب الشعب، دون القدوم على أفعال إيجابية يتحقق بها صلاح المجتمع.

يقول من قصيدته "من مذكرات المتنبى فى مصر سنة ١٩٦٨م"(١) .

١- القصيدة من بحر الرجز.

- "نامت نواطير مصر" عن عساكرها"[٢] ...
- وحاربت بدلا منها الأناشيد !
- ناديت : يا نيل، هل تجرى المياه دما..
- لكى تفيض، ويصحو الأهل إن نودوا ؟!
- "عيد بأية حال عدت يا عيد" ؟ ![٣]

يتهكم الشاعر – هنا – بالقيادة السياسية فى تلك الفترة، بسبب ما اشتهرت به من الكلام دون جدوى.

فهو يسخر من مظاهر الضعف والانهزام التى أذلت رقاب قادة السياسة المعاصرة، وذلك حين نامت قواتنا المسلحة التى هى درع الأمة الواقي، وحل محلها سلاح الكلام، والثرثرة بالأناشيد الهزيلة الفارغة التى ملتها الآذان لكثرة ما سمعتها.

وتدل السخرية – هنا – على رفض هذا التخاذل ، باعتباره مظهرا من مظاهر تردى الواقع المعاصر، الذى هو فى حاجة إلى طرح كل القيم السلبية، التى تدعو إلى التأخر والتخلف عن مسايرة ركب الحضارة الحديثة.

*ويقول الشاعر"أحمد سويلم" ساخرا من الضعف والتخاذل القابضين على أعناق المصريين[٤]:

- أيها القاعد المتشبث بالأرض
- ترى.. آن .. أن تحتضر!
- ما الذى تملك الآن يا صاحبى ؟ !

١- الأعمال الكاملة/٢٠٦ .
٢- النواطير: جمع ناطور، وهو حافظ الزرع والكرم.
٣- القصيدة من بحر الرجز .
٤- ديوان صرخات تحت قبة الأقصى/٤٠، ٤١، "بحر المتدارك".

- غاب صوتك ..
- غاب سلاحك..
- غابت صلاتك ..
- غابت عهودك ..
- زلزلة الأرض والصمت..
- أين ؟ !
- وأين الخطى فى دروب الزحام..
- أما زلت يا صاحبى فى انتظار المطر
- آه يا ضيعة الوطن .. الحلم
- يا ضيعة الزاد..
- يوم يحين السفر!!

يسخر الشاعر – هنا – من أبناء مصر الذين ركنوا إلى الأرض، راضين بعيش الهوان.. منتظرين مجئ الفرج.

وتكمن السخرية اللاذعة فى السطر الشعرى الأول، حين يقدم الشاعر صورة للمصرى الكسول المتخاذل، فيصوره بصورة إنسان مرتم فوق الأرض، متشبث بها يفضل انتظار الموت على الدخول مع الحياة فى صراع من أجل البقاء والكرامة.

ولغة الشاعر تجسد السخرية من الضعف والتخاذل هنا تجسيدا رائعا، من خلال اختيار اللفظة المناسبة (مثل: القاعد، والمتشبث) والأسلوب الذى يتناسب مع الموقف.

وكم جر علينا هذا الضعف وهذا التخاذل من نكبات ويلات، فى ظل مجتمعات معاصرة لا تعرف إلا القوة والجسارة والتصارع من أجل البقاء.

تقول الشاعرة "وفاء وجدى"[1] ساخرة من سذاجة المصريين وضعفهم [2]:

- فى زمن تعلو الكلمة فيه لمن كتب الله عليهم..
- أن يحيوا فى الذلة والمسكنة يلوح سؤال:
- كيف تبدل حال بالحال؟ !
- كيف توغل ضبع فى دمنا ؟
- كيف يهشم فينا العظم لكى يلغ بأعماق نخاع ؟
- إلا أن دار حوالينا
- فاستكشف أن فريسته
- نائمة فى الأوحال وفى الأنتان !!

ففى هذا النص تبدو سخرية الشاعرة من المصريين ، وإلقاء تبعة الواقع المتردى على أكتافهم ؛ إذ لو لم يكونوا نعاجا ، ما افترستهم ذئاب الغرب.

وتتجسد السخرية – فى هذا النص – من خلال ما تبرز الشاعرة من التناقض الغريب بين حال أمة حكم الله عليها بالصغار، لكنها تعيش على القمة، وحال أمة كرمها الله ، لكنها تعيش فى الأوحال والأنتان !!

وبهذا، وبما قدمناه من قبل ، ندرك كيف كانت السخرية الوطنية والسياسية فى القرن العشرين صدى صادقا للحياة السياسية ، وصورة لشعور المحكومين ، ونظرتهم إلى حكامهم فى مختلف العهود.

١- الشاعرة "وفاء وجدي" من مواليد بور سعيد، حصلت على بكالوريوس المعهد العالى للفنون المسرحية قسم النقد عام ١٩٦٩م، صدر لها عدة دواوين منها: ماذا تعنى الغربة ، الحب فى زماننا.
(ينظر: ديوان الحب فى زماننا ، وفاء وجدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م.

٢- ديوان الحرث فى البحر/٦٨، ٦٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢م، "المتدارك".
(ينظر: ديوان الحب فى زماننا ، وفاء وجدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م.

***المرحلة الثانية: المرحلة المعاصرة:**

هذه هى المرحلة الأخيرة من القرن العشرين، وعندما نتأملها نجد أنها تجسيد صادق للديمقراطية المعاصرة وهى بطبيعة الحال تختلف عن المراحل التى سبقتها بما أشرق فيها من حرية واحترام لإنسانية الإنسان.

***أسباب خمود السخرية فى هذه المرحلة:**

انكمشت السخرية فى هذه المرحلة، وهدأت ثورتها، وذلك راجع إلى أمرين:

الأول: الحرية الكبيرة التى منحتها الدولة إلى رعاياها، مما أتاح للمعارضة أو للآراء المخالفة أن تعبر عن نفسها بأسلوب صريح ومباشر، مما جعل استخدام أسلوب الغمز واللمز والتلميح والتورية لا محل له فى هذه الفترة الزمنية، فما كان الشاعر يريد أن يقوله عن طريق السخرية، استطاع أن يقوله بصراحة ، مثل قصيدة "أمل دنقل" : "لا تصالح"[1] .

فالحياة السياسية عندما تعامل الناس بنظام يقوم على الحرية ، يكون ذلك سببا قويا لظهور ألوان من الأدب تظهر فيها الصراحة، واستقلال الرأى، والاعتراف بالشخصية الإنسانية، وكرامة الفرد والمساواة بين الناس، كما تظهر فيها حرية الأديب فيما يريد أن يطرق من موضوعات الشعر أو النثر[2].

الثاني: انتقال ما وجد من شعر السخرية السياسية فى هذه الفترة إلى العامية؛ ليكسب بذلك أكبر قدر ممكن من عامة الجماهير.

١- مطلع هذه القصيدة:
لا تصالح !
.. ولو منحوك الذهب
أترى حين أفقأ عينيك،
ثم أثبت جوهرتين مكانهما..
هل ترى.. ؟
(الأعمال الكاملة لأمل دنقل/٣٤٥).

٢- انظر: التوجيه الأدبي، تأليف طه حسين، أحمد أمين، وعبد الوهاب عزام، د. محمد عوض محمد ص١٢، مطابع دار الكتاب العربى بمصر ١٩٥٣م.

وأصحاب هذا الاتجاه يساريون، وبعضهم ماركسيون لا يدينون للعربية بولاء، من أمثال: أحمد فؤاد نجم، وفؤاد حداد، وصلاح جاهين، وكمال عمار، وأشعار هؤلاء ليست محلا لهذه الدراسة.

وما كان من شعر فصيح فى السخرية فى هذه المرحلة، فقد وجد على قلة فى المسرح الشعري، كما في: شهريار، ويوليوس قيصر لعزيز أباظة، ومثل: الأميرة تنتظر وبعد أن يموت الملك، وليلى والمجنون لصلاح عبد الصبور[1] وغيرها.

١- راجع: المسرح والتراث العربي، د. سمير سرحان/٢٦ وما بعدها، مكتبة الشباب، مطابع الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٨م.